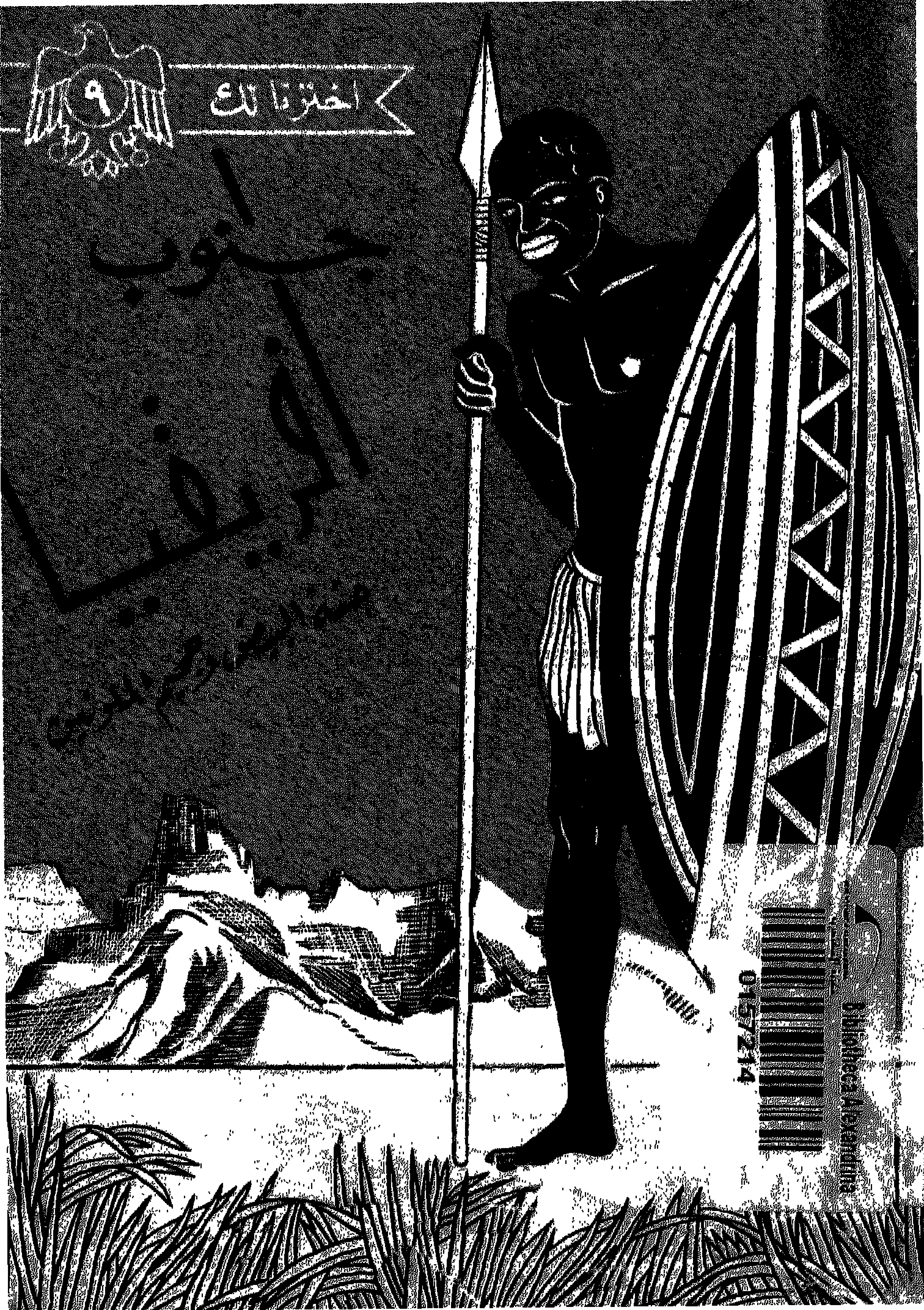

اخترنا لك
٩
جنوب أفريقيا

اخترنا لك ...
٩

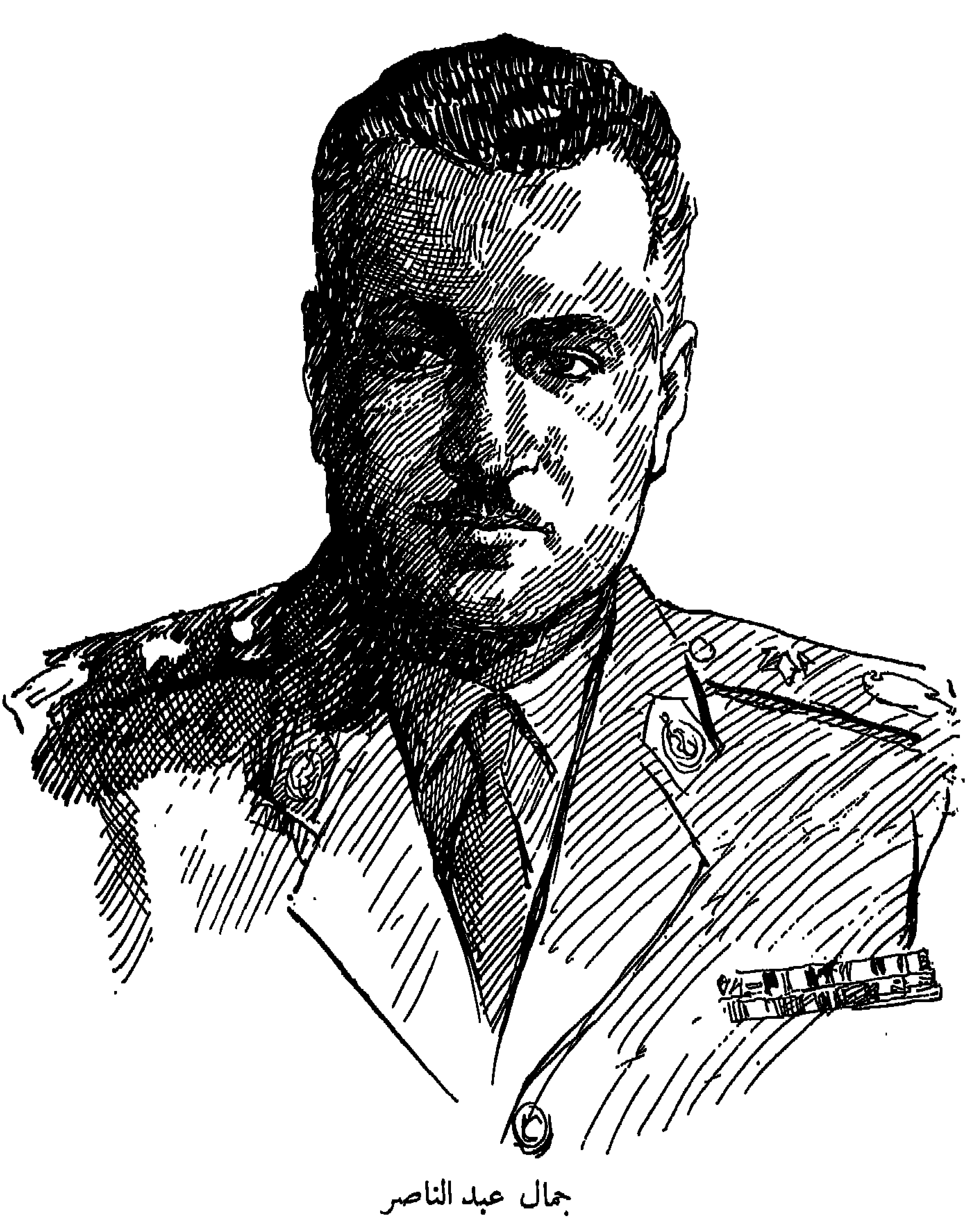
# جنوب أفريقيا

## جنة البيض وجحيم الملونين

اشترك فى إعداد هذا الكتاب :

- أمين شاكر
- سعيد العريان
- مصطفى أمين

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



جمال عبد الناصر

# الاستعمار ألوان . . .

بقلم

## جمال عبد الناصر

الاستعمار ألوان . . .

● منه ذلك اللون الذى عرفناه فى بلادنا قبل أن تُكره بريطانيا على الجلاء ؛ وهو لون يستهدف المستعمر من ورائه بسط السيطرة والنفوذ ، واكتساب سوق تجارية لبضائعه ، وامتلاك طريق برية وبحرية لأسطوله وتجارته ، ثم اصطناع فئة من أهل البلاد يجتذب بهم مَن وراءهم من الشعب ليسبّحوا أبداً بحمده وينوّهوا بفضائله فى العالمين !

● ومنه لون آخر ، كالذى يراه إخواننا الجزائريون فى بلادهم منذ دخلها الفرنسيون فى سنة ١٨٣٠ ؛ وهو لون يستهدف — إلى ما سبق — محو جنسية الشعب والقضاء عليها ، واستلحاق الأرض ومن يعيش على ظهرها بأرضه ونسبه ، لتكون أرض المستعمرة جزءاً من وطنه ، وأهلها — على ما يزعم — جزءاً من أهله ؛ كما يتبنى بعض ذوى الثراء يتامى منقطعين ، أو لقطاء منبوذين ، ليعيشوا فى كنفه وينتحلوا اسمه ؛ فيكونون فى ظاهر العلاقات الاجتماعية أبناء لأب ، وهم فى واقع الحياة خدم وبطانة

وحاشية لذلك الأب ؛ لأنه إنما استلحقهم للمهنة والاستغلال ، لا للرابطة الإنسانية أو شرف النسب ؛ ومن هذا الباب دعوى فرنسا بأن الجزائر أرض فرنسية ، ملحقة بأرض فرنسا ذاتها ؛ وبأن أهلها فرنسيون ، ملحقون بأهل مرسيليا وباريس !

● ومن الاستعمار لون ثالث ، كالذى فعلته روسيا بالولايات الإسلامية فى آسيا الوسطى ، منذ ضُرب عليها النطاق الفولاذى ؛ فهى فى الاعتبار الواقعى من يومئذ مستعمرات سوفيتية ، مسلوبة الحرية والإرادة ، ليس لها كيان قائم ، وليس لأهلها رأى فى شأن من خاصة شئونهم ولا فى شأن من عامة الشئون ؛ ولكنها فى الاعتبار الدولى — أو فى دعوى السوفيت على الأقل — ولايات مستقلة فى حكومة اتحادية عامة ، يدور حولها جميعاً ذلك النطاق الذى لا ينفذ من ورائه صوت ولا نظر !

● ومنه لون رابع ، كالذى كانت تحاوله بريطانيا فى بعض مناطق السودان ، قبل أن تُكرهها يقظة الوعى فى وادى النيل على الانسحاب ؛ وذلك أن تضع القبعات على بعض الرءوس ، وتنشر المسيحية بين أهل الفطرة ، وتُنطق بالإنجليزية بعض الألسنة ؛ حتى إذا تجلنزت الرءوس والقلوب والألسنة ، ضمنتْ هنالك بطانة وحاشية ، تناديهم باسم المستر أو اللورد أو السير ، ثم تسخّرهم لما تشاء من أسبابها ، فيستغلّون لحسابها ما بين أيديهم وما تحت أرجلهم من خيرات البر والبحر والبادية ، فتسعد بهم وتسود ، ويشقون بالاستعباد الأبدى !

● ومنه لون كالذى فعلته الصهيونيه بفلسطين وأهل فلسطين ؛ إذ

هاجر إليها اليهود لائذين مما يلقون فى بعض البلاد من عنت نالهم بحق أو بغير حق ؛ فلم يكادوا يضعون أقدامهم فى أرض السلام حتى أشعلوها حرباً ، ثم زعموا أنها بلادهم لا بلاد أهلها ، وشرّدوهم فى الآفاق بلا مأوى ليأووا إلى مساكنهم ، وطردوهم من وطنهم ليتخذوه لأنفسهم وطناً . ذلك أيضاً لون من الاستعمار !

● ومنه الاستعمار المختلط فى جنوب أفريقيا . . .

* * *

ولكن الاستعمار فى جنوب أفريقيا لون غريب . . .

بلاد كان يعيش فيها أهلها كما يعيش أهل كل وطن فى وطنهم ، ثم اكتشف أوربى أفاق منذ قرون أن فى أرضهم خصباً ، وفى مناجمهم ذهباً ، فطمع فى غلة الأرض وفى ذهب المنجم ، وجاء بمحاريثه ومعاوله ومكاتله ، ليزرع ويحصد ويستنبط الثروة المعدنية من باطن الأرض . . .

ودافع الوطنيون عن وطنهم ما وسعهم الجهد ، حتى غُلبوا ، فاستسلموا . . .

ونزل المستعمر الأوربى أرض أفريقيا الجنوبية ، وزرع وحرث ، واقتنى الماشية ، واستنبط المنجم ، وصار له فى البلاد دار وضيعة ومصنع . . .

ثم لحق به من لحق من أهله ، فزرعوا مثله وحرثوا ، واقتنوا واستنبطوا ، واتخذوا دوراً وضياعاً ومصانع . . .

ثم تتابعت أفواج المهاجرين ، من أهليهم ومن غير أهليهم ، منهم الهولانديون ، ومنهم البرتغاليون ، ومنهم الفرنسيون ، وأجناس شتى ، فعلوا فعل الذين سبقوهم ، وعاشوا فى تلك البلاد مثل عيشتهم ، واتخذوا الدور

التى تؤويهم ؛ فلم تلبث دورهم أن كثرت حتى صارت مدينة ؛ ثم ضاقت بهم المدينة فنشأ على غرارها مدن . . .

كل ذلك والوطنيون من أهل البلاد ينظرون إلى هؤلاء الجيران الجدد فلا ينكرون من أمرهم شيئاً ؛ لأنهم لم يسلبوهم شيئاً فى أيديهم ، ولم يمنعوهم شيئاً من حاجتهم ؛ ولأن خير البلاد يتسع لهم ولجيرانهم الجدد جميعاً . . .

ولم يلبث هؤلاء الجيران البيض أن زادوا عدداً ، وازدادوا غنى ؛ وصاروا فى جنوب أفريقيا « شعباً » من البيض ، يعيش فى وسط الملايين من ذوى البشرة السوداء !

هؤلاء الملايين من ذوى البشرة السوداء ، هم الوطنيون ، وهم أصحاب البلاد الحقيقيون . وهؤلاء الآلاف ، أو مئات الآلاف ، من البيض ، ليسوا إلا مهاجرين غرباء عن هذه الأرض ، وعن هذا الوطن ، جاءوا إلى هذه البلاد ليعيشوا ، ويستغلوا ، لا ليتخذوها وطناً ينسون به أوطانهم ، ولا ليكونوا بها جنساً من البشر تنمحى فيه جنسياتهم ؛ فكيف ساغ لهم — ولم تمض على هجرتهم إلا سنوات — أن يزعموا أنهم شعب فى وطن ، وأن هؤلاء الملايين من أصحاب البلاد هم الغرباء عن هذا الشعب وعن هذا الوطن؟

ولكنهم كذلك زعموا ، وسموا أنفسهم شعباً ، وسموا ما تحت أرجلهم من الأرض وطناً ؛ وكل من عداهم من غير ذوى البشرة البيضاء ليسوا من هذا الشعب ولا من هذا الوطن !

عبيد ؛ للعمل والمهنة يقيمون بين هؤلاء البيض ، لا بحق المواطنة !

لون غريب من الاستعمار ابتدعه « البوير » أولُ المهاجرين البيض إلى جنوب أفريقيا . . . .

ثم جاء دور بريطانيا حين وصل أوّل أفاق إنجليزى أبيض إلى تلك البلاد ، ليعيش ويستغل ويستوطن كما استوطن الذين سبقوه من البيض؛ ثم تبعته الجيوش البريطانية لتستغل وتستوطن وتستعمر فى الوقت نفسه . . .

وقال «البوير» المستوطنون البيض فى جنوب أفريقيا : هذا وطننا ، ولا بد أن ندافع عن وطننا !

ونشبت الحرب بين الإنجليز والبوير ، وكان للعبيد دور فى المعركة ؛ لأن الإنجليز لوّحوا للعبيد بصكّ الحرية . . .

وانتصرت بريطانيا ، ولكن العبيد ظلوا عبيداً . . .

وصار « اتحاد جنوب أفريقيا » منذ ذلك اليوم ، جزءاً من الممتلكات البريطانية المستقلة ، له حكومة ، وله برلمان ، ووراء البرلمان أحزاب ؛ ولكن ، لا تلك الحكومة ، ولا ذلك البرلمان ، ولا تلك الأحزاب ، فيها أفريقى واحد من ذوى البشرة السوداء؛ لأن ذوى البشرة السوداء جميعاً ، عبيد لا مواطنون ، برغم صدور القوانين بتحرير العبيد . . .

كل ذى بشرة سوداء فى جنوب أفريقيا ، عبد ؛ عليه كل واجبات العبد لسيده، أو لسادته، وليس له حق واحد من حقوق الوطنيين ؛ لأن الوطنيين هم البيض !

وتسقط الحكومات فى اتحاد جنوب أفريقيا وتقوم حكومات غيرها ، وتنحل البرلمانات وتنتخب برلمانات جديدة ، وتخوض الأحزاب معارك الانتخاب وتخرج منها ظافرة أو مخذولة ؛ وذوو البشرة السوداء ينظرون

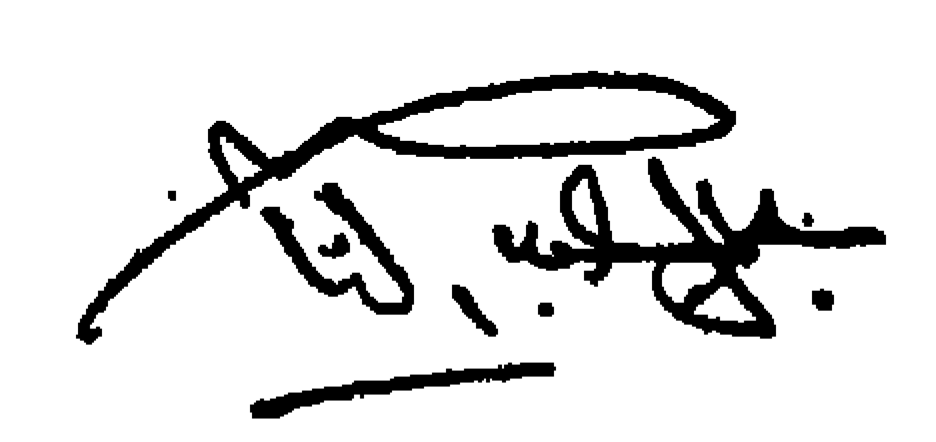
من بعيد ولا يشاركون فى معركة ، ولا يصوّتون فى انتخاب ، ولا يرشحون منهم نائباً ، ولا شيخاً ، ولا وزيراً ؛ لأنهم غرباء فى ذلك الوطن ، والغرباء لا يباح لهم أن يشاركوا فى معارك الحكم ، ولا أن يصوّتوا فى الانتخاب ، ولا أن يرشحوا أحداً منهم للنيابة أو الوزارة ! . . .

البوير يصفون الإنجليز بأنهم مستعمرون غاصبون ؛ لأنهم غصبوا «وطنهم» !

والإنجليز يتهمون البوير بأنهم أنانيون متعصبون ؛ لأنهم يريدون جنوب أفريقيا لهم دون الإنجليز !

وتدور المعارك حول هذه القضية بين هؤلاء وأولئك ، ويشتد الجدل بين البيض ، بعضهم يؤيد هؤلاء وبعضهم يؤيد أولئك ؛ ولا يخطر ببال أحد من هؤلاء ولا من أولئك ولا من غيرهم ، أن صاحب الوطن ليس هو البوير ، لأن البوير مهاجرون محدثون إلى أرض لم يكن يعيش فيها آباؤهم ؛ وليس هو الإنجليز ، لأنهم مهاجرون أحدث من البوير ؛ وإنما صاحب الوطن الحقيقى هو هذا الشعب الأسود المنبوذ وراء أسوار المدن الصناعية فى المعازل التى صنعها له البيض !

إن شعب جنوب أفريقيا يعانى لوناً من الاستعمار لم يُكتب مثله على شعب غيره من شعوب الأرض ؛ ولكنه قد استيقظ ووعى ، وأقسم أن يظفر بحريته ، ولا بد أن يظفر بحريته !



# تمهيد

« اتحاد جنوب أفريقيا » : هكذا يسمى ، وليس فيه مع ذلك أثر للوحدة أو الاتحاد ، وإنما شاءت السياسة أن تسميه كذلك . . .

ولم يجتمع فى بلد من البلاد من المفارقات والأضداد قدر ما اجتمع منها فى هذه البلاد .

فيها ذوو البشرة البيضاء والشعر الأصفر ، وفيها ذوو البشرة السوداء القاتمة والشعر الفاحم المجعّد . . .

وفيها الأوربيون ، وإلى جانبهم الأفريقيون والأسيويون . . .

وفيها الثراء الفاحش ، والفقر المدقع . . .

وفيها يشع نور المعرفة ، إلى جانب ظلمات الجهل والأمية . . .

وفيها يسود العلم ، وتسود إلى جانبه الشعوذة والخرافات . . . .

وفيها يعيش أهل الكتاب ، وإلى جانبهم الوثنيون وعبدة النار . . .

وليت الأمر قاصر على ذلك ، بل إن جنوب أفريقيا يصدر الفائض من الحاصلات الزراعية والمواد الغذائية ، ومع هذا فإن معظم آهليه يعانون أمراضاً تنشأ عن نقص التغذية . . .

وعلى الرغم من قلة العمال المهرة فى تلك البلاد ، فالهجرة محدودة وفى أضيق نطاق . . .

وهى ملكية وجمهورية فى آن واحد ، ويجتمع فيها أشد أنصار

"الكومنولث" حماسة، وأكثرهم فتوراً بل عداء لفكرة الارتباط الوثيق بعجلة الإمبراطورية البريطانية . . .

وأدهى من ذلك أن خمس عدد السكان فقط يتمتعون بكامل حقوق المواطنين وحرياتهم ، دون الأغلبية العظمى . . .

والأحزاب السياسية التى تنتمى إليها هذه الفئة القليلة من السكان ، تعيش فى خوف دائم ، وتعمل جاهدة فى الوقت نفسه على بسط سلطانها وسيادتها على الأكثرية المحرومة .

ولكى يستبقى الأوربيون فى أيديهم زمام الحكم والسيطرة ، ينتهجون سياسة عقيمة لا بد أن تطيح بهم عاجلا أو آجلا ؛ فهى سياسة غير واضحة الأهداف ولا محدودة الغاية ، طابعها الأول عدم الانسجام بين الطبقة الحاكمة ، طبقة السادة البيض ؛ والطبقة المحكومة ، طبقة العبيد الملونين ؛ ففى الأولين نزوع إلى السيطرة والتسلط ، وفى الآخرين رغبة قوية فى التحرر والانعتاق . . .

ولعل أقوى مظاهر التناقض فى تلك البلاد ، هو أن الاتحاد الذى يمثل مستعمرات جنوب أفريقيا الأربع ، يقوم بدور استعمارى يشبه إلى حد بعيد الدور الذى تقوم به أى دولة من دول أوربا الاستعمارية ، ويواجه مثل مشاكلها ، مع فارق واحد ، هو أن دول الاستعمار الأوربية تقوم بدورها الاستعمارى فى بلاد بعيدة ، تفصلها عنها مئات الآلاف من الأميال ، فى حين أن « اتحاد جنوب أفريقيا » يقوم بدوره الاستعمارى فى البلاد نفسها ؛ فهو دولة استعمارية ومستعمرة فى آن واحد،

لا يفصل البحر فيها بين بلاد السادة وأرض العبيد ، كما هو الحال بين دول الاستعمار ومستعمراتها ، بل يعيش المستعمرون وضحايا الاستعمار في وطن واحد ، وتظلهم سماء واحدة ، ويختلط السادة المنعّمون بالعبيد المسخّرين اختلاط الجار بالجار ، فيشهد الزنوج والملونون ما يتمتع به سادتهم البيض من ألوان الرغد والرفاهية ، وهم يعيشون في الذل والفاقة والحرمان ، فتمتلئ قلوبهم سخطاً وحسرات وأضغاناً . . .

والمستعمرة – دائماً – في نظر الإنجليز ليست إلا ضيعة استغلال ، في بلاد نائية ، أورثه إياها آباؤه الماضون ، بعد أن ملكوها بحق الفتح أو بالغدر والمخاتلة والحيلة ؛ وله – بحق هذه الملكية الموروثة أن يستغلها على أي وجه يشاء ، وأن يستمتع بخيراتها كما يريد ، ويستأثر بخاماتها وموادها الأولية وثمراتها المتجددة بالطريقة التي تحلو له وتوافق مصالحه ، دون أن يفكر في أهلها وما قد يعود عليهم من خير أو من شر بسبب ذلك ؛ وقد يهاجر إليها أو يبعث إليها بأولاده ليعيشوا فيها زمناً يطول أو يقصر ، ينتفعون بها ويتمتعون بخيراتها ما شاءوا ، ثم يعودون متى شاءوا وقد حصّلوا مالا وثروة وجاهاً ، كما يفعل كل ذي ضيعة بضيعته !

والإنجليزي إذا تحدث عن الاستعمار – مع ذلك – انتفخت أوداجه وتملكه الزهو وراح يسرد على مستمعيه كيف ارتقت المستعمرات وتحضرت ، وكيف توفرت لأهلها أسباب الرخاء والرفاهية ، على أيدي بني وطنه ؛ وواقع الحال يكذّب – دائماً – ذلك الزعم الباطل ؛ فما هي إلا عبارات جوفاء ليس لها ظل من الحقيقة ، تنشرها الصحف ويتشدق

بها السياسيون فى المحافل الدولية والخاصة ، ليسوغوا الجرائم البشعة التى يرتكبونها فى المستعمرات ويستذلون بها أهلها ويأكلون أرزاقهم ويمتهنون كرامتهم الإنسانية . . .

وهذا هو شأن الاستعمار الإنجليزى فى جنوب أفريقيا ، بالرغم من الدعاوى الباطلة التى يذيعها الإنجليز ليوهموا العالم أن استعمارهم فى تلك البلاد لم يكن إلا خيراً ورحمة على الأهالى الذين يحكمونهم بالقهر ليغتصبوا لقمة العيش من أفواههم ويتخذوهم عبيداً لهم وخدماً . . .

ولقد تطوّرت النظريات الاستعمارية بتطور الزمن ، وكان وعى الشعوب المغلوبة على أمرها هو السبب الأول لتطور تلك النظريات؛ فلم يجد المستعمرون بداً من اصطناع أساليب جديدة لاستبقاء سيطرتهم الاستغلالية على بعض المستعمرات ؛ وكان من تلك الأساليب ما يسمونه بالحكم الذاتى ، أو ما يسمونه بالمشاركة فى شئون الحكم والإدارة الداخلية ؛ على أن دول الاستعمار لا تعنى بالحكم الذاتى ولا بالمشاركة أن تتخلى عن المستعمرات لسكانها الأصليين ، وإنما هى مسكنات وقتية لمواجهة ضغط الشعوب الواعية ؛ وما دامت الدفة فى يد الدولة الاستعمارية ، فليست تخاف إفلات الصيد من يدها . . .

غير أن الشأن فى اتحاد جنوب أفريقيا غيره فى سائر المستعمرات ؛ إذ يعيش فى تلك البلاد طوائف غير قليلة العدد من الأوربيين البيض ، قد اتخذوها وطناً يعيشون فيه مع الزنوج والملونين ، أصحاب البلاد الأصليين ؛ ولكن هؤلاء الملونين لا يباح لهم ما لا يباح للبيض من

الانتفاع بثمرات الحكم الذاتى أو نظام المشاركة فى شئون الإدارة الداخلية؛ فإذا ما طالبت هذه العناصر غير الأوربية بالاشتراك فى الحكم ، أو بعضوية المجلس التشريعى ، أبى الأوربيون المستوطنون ذلك عليها ، لتكون الإدارة الداخلية فى أيديهم وحدهم ، ويعالجون يقظة الوعى القومى لدى الملونين بأساليب رعناء ووسائل غير طبيعية ، كسن القوانين العنصرية التى تفرق بين المواطنين فى مدى الانتفاع بالحقوق والحريات ؛ وفى هذا يختلف حال الأفريقيين فى اتحاد جنوب أفريقيا عن حال سائر الأفريقيين فى المستعمرات الأوربية الأخرى ، الذين ظفروا ببعض الحقوق والحريات فى ظل المستعمرين من غير الإنجليز . . .

وتزعم دول الاستعمار الأوربى أن سياستها فى المستعمرات تقوم على أساس إعداد أهالى المستعمرات للنهوض بأعباء الحكم فى بلادهم ، أو بتعبير آخر : السير بهم فى طريق الاستقلال الذاتى ، على نهج لا يؤدى بالدولة الناشئة إلى الفوضى : فكلما نضج الوعى القومى لشعب من شعوب المستعمرات ، منحته الدولة ذات السيادة بعض ما يطالب به من الحقوق ، حتى يأتى الوقت الذى تكتمل فيه أهليته للحكم ، فتمنحه الاستقلال الذاتى ؛ ويكون لها بذلك فخرٌ تباهى به فى المحافل الدولية . . .

هكذا تزعم دول الاستعمار ، ولكن الواقع لا يؤيده كل التأييد ، فالحق الذى لا مراء فيه أنه ما من دولة من تلك الدول تركت مستعمرة من مستعمراتها طائعة ، وإنما يرغمها الوعى القومى على التسليم بحق الشعب فتعترف به مكرهة . . .

على أنه سواء أكان تسليم الدول الاستعمارية بحقوق الشعوب الواعية نتيجة تطوع أو نتيجة إكراه ، فإن خاتمة الاستعمار دائماً معروفة ، مهما طال الزمن ، وهى تمرد شعوب المستعمرات على مستعمريها ، حتى يظفروا بحريتهم كاملة ، دفعة واحدة او على مراحل . . .

وقد آمن زعماء العصابات الاستعمارية أخيراً بهذه الحقيقة بعد طول إنكار ، حين رأوا شمسَ الإمبراطوريات تؤذن بالمغيب ، وشاهدوا تطور الوعى القومى فى مختلف الشعوب المستعبدة ، وبدت نذر الثورة الجارفة فى المستعمرات الأفريقية والأسيوية

على أن إيمانهم بهذه الحقيقة لم يحملهم على تطور حاسم فى أساليبهم الاستعمارية ؛ فما زالوا يتعلقون بالأمل الكاذب فى استبقاء بعض الصلات الاستغلالية بينهم وبين الشعوب التى أذاقوها من مرارة الاستعمار كئوساً طافحة ؛ ولكن وعى الشعب أقوى من كل المحاولات التى يبذلونها بغباوة فى كثير من البلاد ليحولوا دون النهاية المحتومة ، وهى انهيار صرح الاستعمار !

# جنوب أفريقيا

إن الغالبية العظمى من القراء العرب لا يعرفون عن جنوب أفريقيا إلا القليل من المعلومات التى تأتيهم عن طريق الصحف بين الفينة والفينة ، وهى معلومات لا تشفى غلة ولا تسمن من جوع .

ونحن العرب نرتبط بأواصر الجوار والدم واللغة والدين — أحياناً — بعدد من شعوب أفريقيا ؛ فكان لزاماً علينا أن نلم بأكبر قدر من المعلومات عن شئون « القارة السوداء » كما يحلو للأوربيين أن يسموها . . .

ونحن إذ نقدم هذا الكتاب لقرائنا العرب ، إنما نضع بين أيديهم الحقائق عارية من غير تجن أو محاباة . . .

* * *

لسنا مغالين إن قلنا إن معرفتنا بجنوب أفريقيا قاصرة على موقعه الجغرافى فى الطرف الجنوبى من القارة ، وعلى أن حرباً شعواء قد قامت فى السنوات الأخيرة من القرن الماضى بين البوير الذين كانوا يدافعون عن حرياتهم ، وبين الإنجليز الذين كانوا يسعون إلى سلبهم إياها .

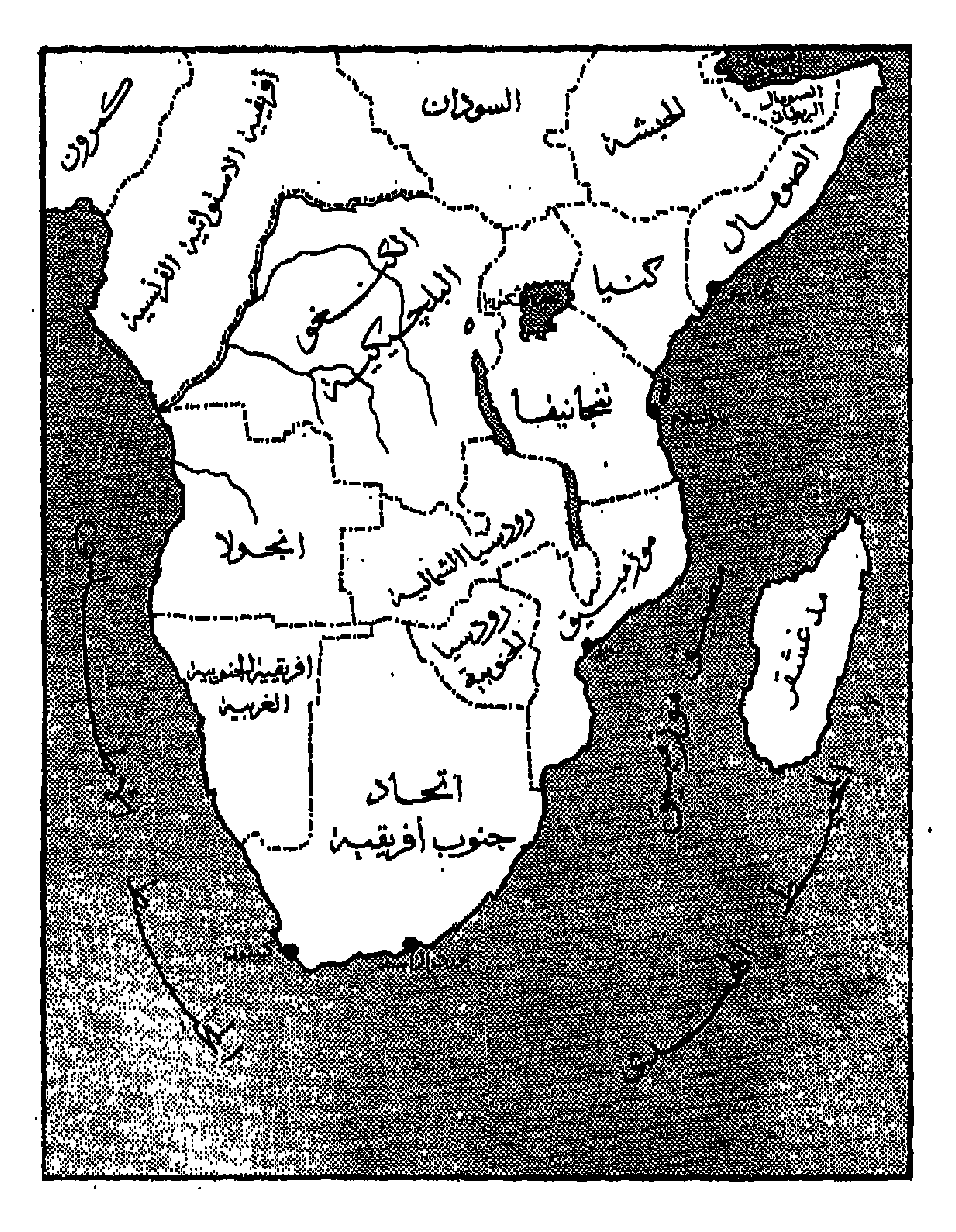
وقد يكون مما يعرف بعضنا أن أراضى الاتحاد غنية بمناجم الذهب والماس ، وأنها مصدر ثروة عريضة تستحلها الشركات الاستعمارية لنفسها ؛ ولكن أكثرنا لا يعلمون أن فى تلك البلاد مشاكل اقتصادية وسياسية وعنصرية يصعب إيجاد حلول لها ؛ لذا رأينا أن نبدأ بعرض شامل نتناول فيه شرح طبيعة هذا الاتحاد وتكوينه . . .

## جغرافية البلاد

أفريقيا الجنوبية ، أو القارة الأفريقية الجنوبية كما يسميها الإنجليز ، رقعة من الأرض تبلغ مساحتها ستة ملايين من الكيلومترات المربعة ( أى نحو عشرة أمثال مساحة مصر ) ، وتقع بين خطى عرض ١٠° و ٣٥° جنوبى خط الاستواء ، وتشمل ، فيما تشمل ، مستعمرتى أنجلو وموزمبيق التابعتين للبرتغال ، فضلا عن عدة أراض تابعة لبريطانيا ، على اختلاف صور التبعية ، فمنها الدومنيون الذى يتمتع بشبه استقلال ( ويطلق عليه اسم اتحاد جنوب أفريقيا ) ، ودومنيون آخر نشأ منذ قريب باسم « روديسيا الجنوبية » ، ومستعمرة روديسيا الشمالية ، يضاف إلى ذلك بضع محميات ، هى : بتشوانا لاند ، وباستوتولاند ، وسوازيلاند ، وأخيراً أفريقيا الجنوبية الغربية ، التى كانت من قبل مستعمرة ألمانية ثم دخلت تحت انتداب اتحاد جنوب أفريقيا ، وتطالب الأمم المتحدة الآن بأن تكون لها الوصاية عليها .

وبالرغم من تعدد النظم السياسية والإدارية السائدة فى هذه البلاد ، فإنها من غير نزاع ، تعتبر وحدة جغرافية طبيعية ، وكتلة اقتصادية متماسكة .

وسواحل جنوب أفريقيا صخرية ، تكثر فيها الخلجان المستديرة ، وليس فيها مع ذلك إلا القليل من الموانئ الطبيعية ؛ من ذلك أنه لا يوجد




أفريقيا الجنوبية

بين ميناءى الكاب وديربان ، مع طول الشقة بينهما ( ١٣٠٠ كيلومتر ) ميناء واحد يصلح لرسو السفن المتوسطة .

وتمتد بمحاذاة الساحل الجنوبى الشرقى سلسلة جبال يبلغ ارتفاع بعضها ٣٥٠٠ متر فوق سطح البحر ، وتحيط بهضاب الأورانج والترنسفال .

أما المناخ فيختلف على ساحلى المحيطين اللذين يحفان بجانبى الاتحاد ؛ فالمناطق التى تنحدر نحو المحيط الهندى يسودها مناخ قارى رطب يسبب الأمطار الغزيرة المشبعة بالأبخرة التى تهطل على أراضى الناتال صيفاً ( أى خلال الفترة الواقعة بين شهرى ديسمبر ومارس ) حيث يزرع قصب السكر والقطن والشاى والبن وفواكه المنطقة الاستوائية ؛ ويبلغ متوسط درجة الحرارة فى ميناء ديربان ٢٠° درجة فوق الصفر ، وتبلغ نهايتها القصوى فى بعض الأحيان ٤٠° درجة .

وكلما اتجهنا غرباً قل هطول الأمطار ، وتراءت الأرض المجدبة فلا تجد فوق هضاب الأورانج والترانسفال إلا بعض المراعى ، ثم يشتد الجفاف كلما ازددنا اقتراباً من الساحل الذى تبلله مياه الأطلسى ؛ وفى هذه المنطقة تقع صحراء « كالاهارى » الجرداء المقفرة .

أما ولاية الكاب فتنفرد بمناخ معتدل لطيف ، يشبه إلى حد ما مناخ منطقة البحر المتوسط ، إلا فى فصل الشتاء ( الذى يمتد من شهر مايو إلى شهر سبتمبر ) فتتساقط كرات الثلج ، ولكنها لا تؤثر فى درجة الحرارة المتوسطة التى تتراوح بين ١٢ و ٢٠° درجة فوق الصفر .

وتعتبر هذه الولاية أصلح مناطق الاتحاد لزراعة الكروم والحبوب وبعض الفواكه الأوربية .

وأما أنهار جنوب أفريقيا فيتندّرون بقلة مياهها ، فيقولون : إن المرء إذا سقط فيها كان عليه أن ينفض الغبار عن ثيابه ؛ هذا إذا استثنينا النهيرات التي تنحدر على سفوح هضاب دراكنبرج ، وتجلب الطمى والخصوبة لأراضى الكاب والناتال .

ويتراوح ارتفاع هضاب الأورانج والترانسفال حيث توجد مدن جوهانسبرج وبريتوريا وكمبرلى – بين ألف وألنى متر ، وتنحصر درجة الحرارة فيها بين ١٤° و ٢٣° درجة ، وهى بذلك مناطق معتدلة المناخ ، تصلح لمقام الجنس الأبيض ، ومع ندرة العيون الطبيعية فيها ، تمتاز بعض بقاعها بالمراعى التى يطلقون عليها اسم «المراعى الهولندية» مجازاً ، لصلاحيتها لتربية الجياد والماشية والعجول ، وتقع فيها الهضبة الوسطى التى تنتج وحدها من الذرة أكثر من نصف إنتاج القارة الجنوبية بأسرها .

أما ولاية روديسيا التى قضت مشيئة الاستعمار البريطانى بتقسيمها إلى شطرين ، روديسيا الشمالية ، وروديسيا الجنوبية ، فقد كان سكانها من قبل يعثرون على تراب الذهب فى مجارى الأنهار أو على سطح الأرض أحياناً ، إلى أن ظهر سيسل رودس على المسرح ، فعمل على استغلال الثروة المعدنية عام ١٨٩٠ ، ومنحت حكومة لندن إحدى شركاته امتياز التنقيب عن المعادن على جانبى نهر الزامبيز ، فتدرجت هذه الشركة فى استخراج الذهب ، حتى بلغ مقدار الناتج من روديسيا

الجنوبية ٢٤ طناً ، ومن الترانسفال ٤٢٠ طناً خلال عام ١٩٣٦ .

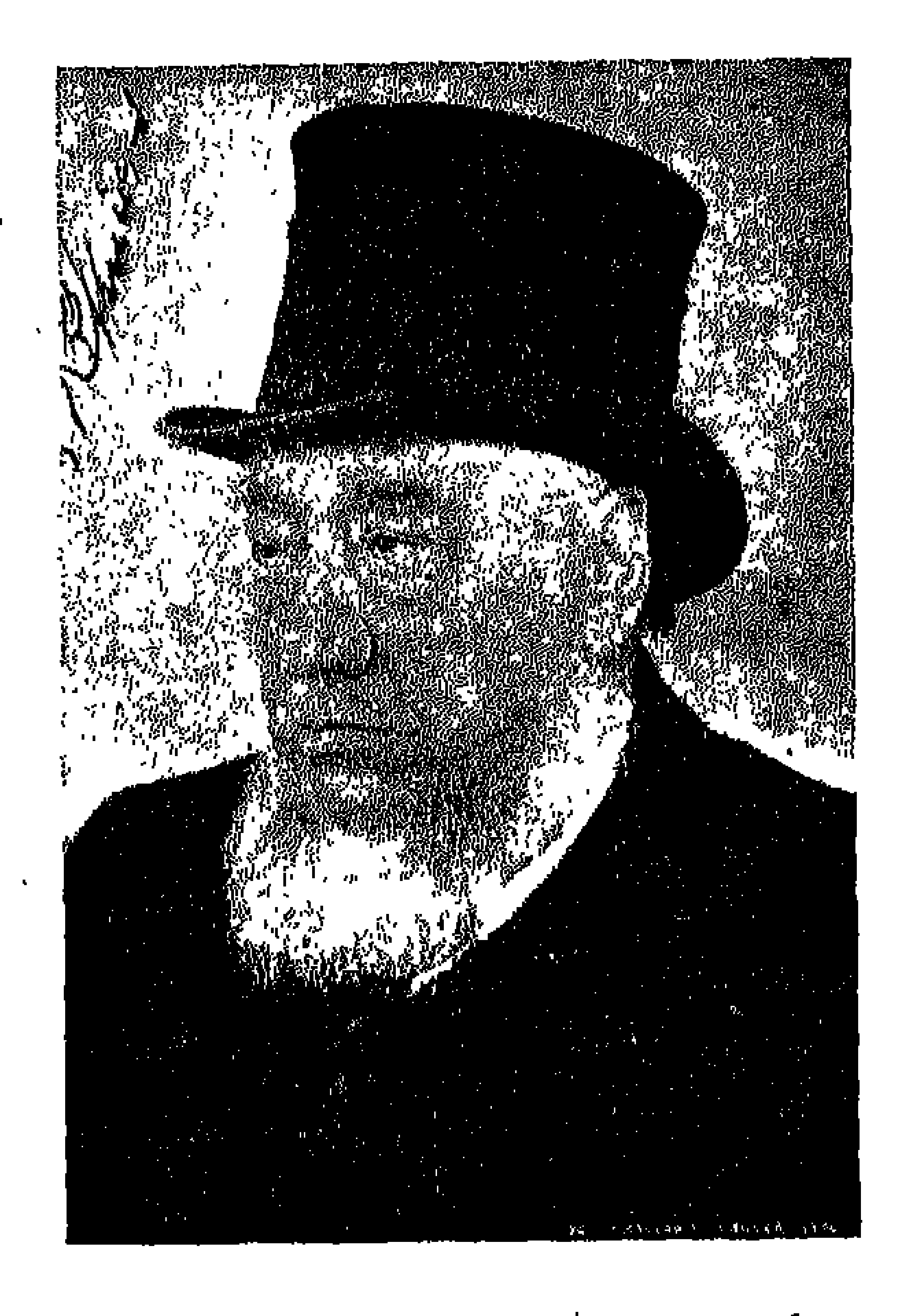
وقد يبدو لأول وهلة أن كمية الذهب المستخرج فى روديسيا الجنوبية ضئيلة تافهة ، والحقيقة أنها تفوق إنتاج المكسيك وأستراليا مجتمعتين ؛ ويزيدها غنى وثروة وجود مناجم الفحم والنحاس فى كل من جزءيها الشمالى والجنوبى .

ومما يجدر ذكره أن جميع الأراضى التابعة للإنجليز بجنوب أفريقيا ، ترتبط اقتصادياً باتحاد أفريقيا الجنوبية ، الذى يعتبر مركز الجاذبية ، إذ يعيش فيه مليونان ونصف مليون من البيض ( الإنجليز والبوير ) إلى جانب تسعة ملايين من الملونين ( السود والمولدين والهنود ) ، كما تقع فى الاتحاد عاصمته الاقتصادية ( جوها نسبرج ) التى تعتبر بحق كعبة المال والأعمال ، وأكبر مركز فى العالم لتصدير الذهب[1] هذا إلى ما يمتاز به سكان هذه المنطقة من الأخذ بأسباب المدنية الحديثة حتى بلغوا فيها شأواً بعيداً .

وسنرى فيما بعد أن حلماً سعيداً ما زال يداعب الاتحاد ، هو ضم جميع الأراضى الواقعة فى جنوبى خط الاستواء إليه ، كما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن هيهات أن يتحقق هذا الحلم ، ما دامت نعرة السيادة تسيطر على عقول أولى الأمر فى حكومة الاتحاد ، وما دامت تتملكهم سياسة التفرقة العنصرية .

---

( ١ ) يستخرج منها نصف الإنتاج العالمى من الذهب



كروجر ، من زعماء البيض ، الذين حاربوا الإنجليز المستعمرين !

## لمحة تاريخية

فى أواخر القرن الخامس عشر ، وفق البرتغاليون إلى طريق بحرى جديد للتجارة مع الشرق ، يمر بسواحل أفريقيا الغربية إلى طرفها الجنوبى ، أطلقوا عليه اسم « رأس الرجاء الصالح » ، وظلت سيادة البرتغال على هذا الطريق طوال قرن من الزمان ، حتى صارت « لشبونة » عاصمة البرتغال ، أخت البندقية فى قوة أسطولها واتساع تجارتها . . .

وكان الهولنديون أكثر الشعوب تعاملا مع البرتغاليين ، إلى أن أخضع فيليب الثانى ملك إسبانيا جيرانه البرتغاليين فى أواخر القرن السادس عشر ، فرأى أن يحرم البروتستانت ، سكان هولندا ، من مصدر ثرائهم ، فأغلق ميناء لشبونة فى وجه السفن الهولندية ، ولكن هذه المحاولة لم تفت فى عضد الهولنديين ، بل كانت حافزاً لهم على تنمية علاقاتهم التجارية مع الشرق ، صوناً لحريتهم الدينية ، واستمساكاً بمذهبهم البروتستانتى ، فأنشئوا شركة الهند الهولندية ، على غرار الشركة الإنجليزية ، فلم تلبث طويلا حتى اتسعت دائرة معاملاتها التجارية ، وكبر أسطولها ، وتوطد نفوذها ، بفضل ما كانت توزعه على المساهمين من أرباح خيالية ، وبفضل الأساليب الاحتكارية التى كانت تتيح للقائمين عليها التحكم فى الأسواق والأسعار ؛ فهى التى ابتدعت طريقة إتلاف المحاصيل وإحراقها ، أو توزيعها بمقادير محدودة ، حتى

لا تغرق الأسواق فتنهار الأسعار ؛ وهى التى لم تترك باباً مغلقاً إلا طرقته ، فاشترت ذمم الساسة ، واستخدم وكلاؤها العنف والتعذيب فى تسخير أهالى جاوة وسومطرة وسيلان ، وتلاعبوا فى دفاتر الشركة ؛ وحالفوا الشيطان فيما كانوا يصطنعون من وسائل غير طبيعية لزيادة الأرباح ، أدت فى النهاية إلى ضياع الشركة ، ولكن بعد أن أنشأت محطة فى رأس الرجاء الصالح عام ١٦٥٢ ، لترسوا فيها السفن وتتزود بحاجة ملاحيها من اللحوم والخضر الطازجة .

ومنذ ذلك العهد أخذت تتجمع عناصر المشكلات الاجتماعية والسياسية التى تشهدها الآن فى اتحاد جنوب أفريقيا .

وكانت بريطانيا وقتذاك مشغولة باستعمار أراضى أمريكا الشمالية ، إلا أن حمى المنافسة التجارية بين كل من فرنسا وهولندا وإنجلترا ، والرغبة الملحة فى فتح أسواق جديدة فى الشرق ، كانت قد بلغت الذروة ، حينما وفد إلى مدينة الكاب الرعيل الأول من المستوطنين الأوربيين .

## كيف نشأت المشكلة العنصرية ؟

وبعد إنشاء محطة الكاب بخمسين عاماً ، بدت فى الأفق نذر المشكلات التى تؤرق جفون المسئولين عن شئون الاتحاد إلى يومنا هذا

فقد كان النخاسون يجلبون العبيد من شرق أفريقيا وغربها ، ومن جزيرة مدغشقر ؛ ومن هؤلاء انحدر الزنوج الحاليون بعد أن تكاثروا فى أراضى الاتحاد ، حتى بلغ تعدادهم حسب الإحصائيات الأخيرة ، نيفاً ومليون زنجى : . .

وكان الملاحون أول العهد بإنشاء المحطة عندما يعودون إلى أوطانهم ، يروون لذويهم قصصاً عن الخيرات الوفيرة التى تعمر بها أراضى جنوب أفريقيا ، وعن الإمكانيات الضخمة التى تبشر المغامرين بحياة رخية وثراء عريض ، فأغرى ذلك الكثير من الأوربيين بالهجرة إلى هذه البلاد البكر واستيطانها ، كما نزح إليها عدد من الأسر الهولندية سعياً وراء المراعى الخصبة ، فتوغلوا فى داخل البلاد ، واصطدموا برجال قبائل الهوتنتوت والبوشمان ( السكان الأصليين ) ثم ساد السلام وتوطدت الأواصر بين هذه العناصر المتباينة بفضل تبادل المنافع ، والمصاهرة ؛ وتكاثر النسل المولّد ، حتى بلغ تعداد هذه السلالة الأفريقية الملونة ثمانية ملايين ونصف مليون ،

وبهذه العوامل التى سردناها ، اجتمع فى أوائل القرن الثامن عشر

ثلاثة أجناس فى جنوب أفريقيا : الأوربيون ، والأفريقيون ، والزنوج ؛ أما الأجناس الآرية فقد نزحت إلى هذه البلاد متأخرة نحو قرن من الزمان .

وهكذا تعددت الأجناس ، ونشأت الطبقات وتربص بعضها ببعض ، حتى تعقدت المشاكل وصدق من قال عن اتحاد جنوب أفريقيا : « إنه بلد يدور فى دائرة مفرغة من المشاكل لا سبيل إلى الخروج منها ! » .

أو كما قال أحد رجال الاقتصاد فى وصفه « إنه بلد ذو تاريخ مقتضب ، ويعانى من المشاكل ما لا تواجهه أعرق الأمم وأوغلها فى القدم ! »

والآن فلندع ( أندريه ڤيولى ) مؤلف كتاب « أفريقيا الجنوبية ، تلك الأرض المجهولة » يتحدث عن مشاهداته ، ويصف ما رآه رأى العين ، فيقول إنه كان جالساً إلى مائدة فى شرفة الفندق ، ذات صباح ، فكان أول ما استرعى بصره قلة النزلاء الأجانب ، وكثرة أهل البلاد الذين جاءوا يقضون إجازاتهم الصيفية . وقد اجتمع حول إحدى الموائد المجاورة أفراد أسرة ، تتكون من أب وأم وولدين فى زهرة الشباب ، يمتازون جميعاً بالقوام الفارع ، والشعر الذهبى ، والعيون الزرق ، وتبدو عليهم أمارات الصحة والقوة . . .

ثم يسترسل الكاتب قائلا : « إنه تحرى أمر هذه الأسرة ، فقال له الساق إن الأب والأم من أصل هولندى ، ولغتهم « الأفريكانية » وهى قريبة من اللغة الهولندية ، قرب هذه اللغة من الألمانية ؛ وهؤلاء القوم

وإن كانوا يجيدون الإنجليزية ، لا يتخاطبون بها إلا فى الأقل النادر ، حين يتعذر عليهم الكلام برطانتهم ؛ وهم من طبقة أصحاب الضياع الواسعة الذين يكونون وحدهم أكثر من نصف سكان الاتحاد . . .

هؤلاء هم الأفريقيون الجنوبيون .

وقد تجد إلى مائدة أخرى ، أسرة إنجليزية ، لا فرق بينها وبين سائر الأسر الإنجليزية التى ألف العالم مظهرها ومخبرها فى كل قطر وتحت كل سماء ، فأفرادها طوال الأجسام ، نحافها ، حمر الوجوه ، مجاملون فى شىء من الترفع ، تراهم وقدعادوا من حمام السباحة أو نادى التنس أو الجولف ، مقبلين فى نهم على أكواب « الويسكى » و« البيرة »..

وهؤلاء أيضاً أهل جنوب أفريقيا ، ومنهم ومن الفريق السابق يتكون العنصر الأوربى الأبيض ، الذى يبلغ تعداده نحو مليونين ونصف مليون .

ثم هاهم أولاء خدم الفندق ، ذوو البشرة البرونزية والشعر الأسود اللامع ، يرتدون ثياباً ناصعة البياض ، وينسابون بين الموائد ، حاملين صحافاً تعلوها أكواب الشراب ، أو ألوان الطعام .

وهؤلاء هم فريق المولدين .

وأخيراً ، فى أسفل درجات السلم ، نجد جماعة الزنوج ، وقد ارتدوا الثياب الزرق ، يسيرون حفاة الأقدام ، ويقومون بالأعمال الدنيا ، من غسل وتنظيف وكنس ، وقضاء حاجات نزلاء الفندق فى الداخل والخارج .

وهؤلاء الزنوج ينتمون إلى شتى القبائل الأفريقية التى يطلق عليها مجتمعة اسم قبائل ( البانتو ) ؛ ويبلغ تعداد هذا الفريق وسابقه ، نحو تسعة ملايين نسمة ، وهم أيضاً أفريقيون جنوبيون .

فكيف نشأت هذه العناصر المتضاربة ، التى توالدت وتكاثر كل عنصر منها على حدة ، دون أن يندمج أو يختلط على الأقل فى غيره ؟

هذا هو السؤال الذى يقف أمامه القارئ حائراً ، ولا يكاد يجد له جواباً . . .

ولقد أشرنا من قبل إلى ما حدث فى جنوب أفريقيا ، حينما أنشأت شركة الهند الهولندية أول محطة تموين لسفنها فى الطرف الجنوبى من القارة ، فقد وفدت إلى البلاد فى مستهل هذه الفترة جالية من الزراع الهولنديين ، وجماعة من الألمان ، انضم إليهم فى أواخر القرن السابع عشر فريق من الهيجونوت الفرنسيين ، فراراً من الاضطهاد الدينى .

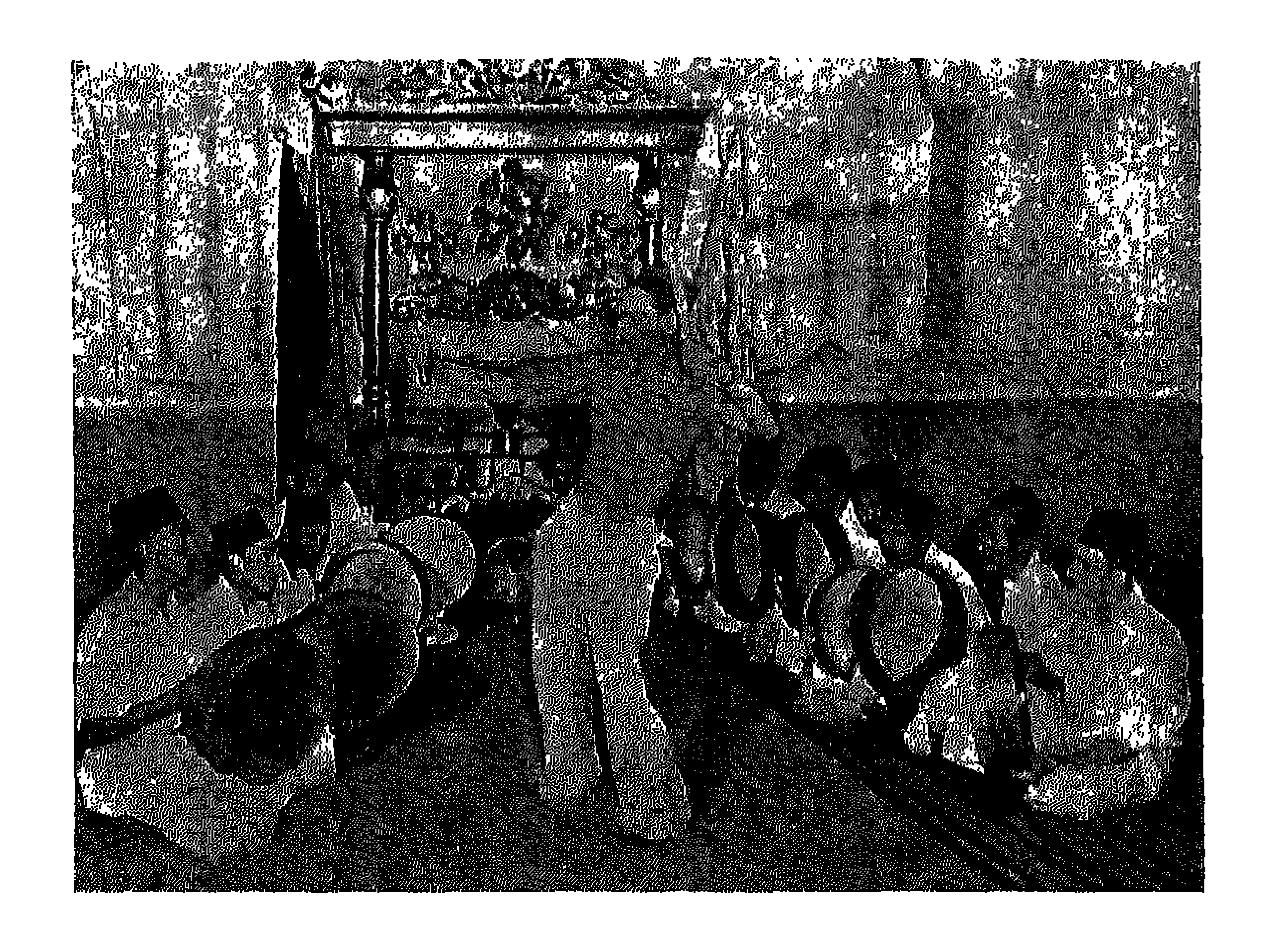
وكان هؤلاء جميعاً من أهل الريف ، المتمسكين بأهداب الدين ، ويعيشون على الفطرة ، فلم يتطرق المكر والدهاء إلى نفوسهم ، ولم تلق الأطماع غشاوة على أعينهم ، فعاشوا قرابة قرنين يتوالدون ويتكاثرون فى أمن وسلام مع سكان البلاد الأصليين .

على أن نفراً منهم كان يتصف باستقلال الرأى وإباء الضيم ، فلم يقبل إلا كارهاً ما يفرضه مديرو شركة الهند الهولندية من قوانين ولوائح تعسفية ، وبعضهم الآخر لم يكن راضياً بحاله ، لعدم تناسب ما يبذله من جهد وما يجنيه من ثمرة ؛ فآثر هؤلاء وأولئك أن يرحلوا إلى

أمكنة أخرى ، لعلهم يجدون فيها مقاماً طيباً ورزقاً وفيراً ، فهاجر بعضهم إلى الشمال ، واتجه بعضهم نحو الشرق ، واستقروا فى أوطانهم المختارة بضع سنوات ، إلى أن حل الإنجليز بجنوب أفريقيا فيما بين سنتى ١٧٩٥ و ١٨٠٦ ، بحجة الحيلولة دون وقوعها فى أيدى أعدائهم الفرنسيين الذين كانوا وقتئذ فى حرب معهم . . .

غير أن هذا الاعتداء الصارخ على بلاد البوير وما اكتسبوه فيها من حقوق لم يرق فى أعينهم ، وكان عددهم قد بلغ حتى ذلك الوقت نحو ٣٥ ألفاً ؛ ومع ذلك فقد آثر بعضهم السلامة ، واستكان للأمر الواقع ، ورضى بالخضوع لهؤلاء السادة الجدد ، ولكن البعض الآخر لم يطق صبراً ، فحمل متاعه وهام على وجهه فى قلب الصحارى ومفاوز الجبال ، وسجلت الأساطير الشعبية بطولة هؤلاء المغامرين وتعشقهم للحرية ، فقد اشتبكوا برجال قبائل البانتو والزولو ذوى البأس والحيلة ، وقامت المعارك بين هؤلاء الذين وفدوا سعياً وراء الأرض الطيبة والماء والمرعى ، وبين أولئك الذين يذودون عن حياضهم ، فقتل من المهاجرين أكثر من ألف رجل ؛ وكانت المعركة الفاصلة بينهما على ضفة نهر سمى فيما بعد « بالنهر الأحمر » ، لكثرة ما سال فيه من دماء ، وكتب النصر للبوير النازحين ، بعد أن مات من رجال قبيلة الزولو نيف وعشرة آلاف ؛

ثم استقر المقام بالبوير فى أراضى ولايتى الأورانج والترانسفال الخصبة ، إلى أن استقلوا بهما ، فأصبحتا جمهوريتين ؛ وبقيت ولايتا الكاب والناتال مستعمرتين إنجليزيتين .



بعض المريدين فى إحدى حفلاتهم الدينية

وكان هذا الاستقرار والاستقلال غاية ما يتمناه البوير وما تصبو إليه نفوسهم ، فظلوا ينعمون بحرياتهم ، ويفلحون الأرض ويجنون ثمارها ، طوال خمسين عاماً ، إلى أن اكتشفت فى أراضيهم مناجم الذهب والماس فى أواخر القرن التاسع عشر ، فحل بها كل أفاق ومغامر ، وشهدت مدينة جوهانسبرج طغمة من الأشرار المفسدين ؛ وتفتحت شهية الإنجليز وسال لعابهم أمام هذه الثروة الطائلة الطارئة ، وتمثلت مطامعهم فى شخص الأفاق الكبير سيسيل رودس .

ثم بذلت عدة محاولات لضم هذه الأراضى التى يسكنها البوير إلى جنوب أفريقيا فباءت كلها بالفشل ، إلى أن قام الدكتور جيمسون ، صديق رودس ، بغارة على مدينة جوهانسبرج ، واستبسل البوير دفاعاً عنها ، فارتدت القوات المغيرة على أعقابها ؛ ثم بدأت المفاوضات بين الطرفين ، ولكنها لم تلبث أن تعثرت بسبب جشع الإنجليز ، فاشتعلت نيران الحرب مرة أخرى فى ١٨٩٩ ، وأحرز البوير عدة انتصارات على الإنجليز ، أثلجت صدور عشاق الحرية فى العالم ، فصفقوا لها ، غير أن عدم تكافؤ الفريقين فى العدة والعدد ، كان السبب فى التجاء المجاهدين إلى حرب العصابات التى دامت زهاء سنتين ونصف سنة .

وشوهد الرئيس كروجر وقتذاك فى مختلف العواصم الأوربية يطلب المعونة الأدبية والمادية ، فلا يلقى إلا وعوداً هنا وتشجيعاً هناك ؛ فلما أعيته الحيلة ووهنت منه القوة ، رأى أن الحرب فى مثل هذه الظروف غير المواتية لا طائل تحتها ، فاضطر كارهاً لعقد معاهدة الصلح عام ١٩٠٢ ،

وضم الإنجليز أراضى الأورانج والترانسفال إلى مستعمراتهم فى جنوب أفريقيا .

وفى ١٩٠٦ حصل الجنرال سمطس على الاستقلال الذاتى لولايتى الأورانج والترانسفال ، ثم دارت مفاوضات طويلة بينه وبين الإنجليز انتهت بمؤتمر عقد فى ١٩١٠ ، وتقرر فيه قيام اتحاد جنوب أفريقيا الذى يضم ولايتى الأورانج والترانسفال ، ومقاطعتى الكاب والناتال .

وغدا الاتحاد بوضعه الراهن ( دومنيون ) مستقلا استقلالا ذاتياً ، يقضى دستوره بأن تنفرد كل ولاية من الولايات الأربع بمجلسها الخاص ، على أن تخضع المجالس الأربعة ، للمجلس التشريعى الأعلى ، ومقره مدينة الكاب .

ولا يرتبط الاتحاد ببريطانيا إلا بيمين الولاء لعاهلها الذى يمثله حاكم عام ، وقد أصبح هذا الحاكم العام منذ سنوات يعين من بين سكان البلاد ؛ ومما يذكر فى هذا الصدد ، أن الحاكم الحالى « فان ديرزيل » ينتمى إلى إحدى الأسر الهولندية العريقة .

## الأجناس الأوربية

والآن ، وقد أقيم هذا الاتحاد ، ووضع الدستور دعائمه ، هل يعنى هذا رسوخ أقدامه ، واجتماع القلوب على تقديره ؟

كلا ، فما زال البوير ، أو ( الأفريكان ) كما يحلو لهم أن يسموا

أنفسهم ، يعيشون بمنأى عن الآخرين فى شبه عزلة ، ويحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم ، ولغتهم الأصلية ، ولا يرضون بغير ديانتهم بديلا ؛ وما فتئوا ينظرون إلى غيرهم من الأجناس ، وبخاصة الأجناس الملونة ، نظرة الترفع والاستعلاء ؛ وهم إلى ذلك ذوو نزعة جمهورية ، لا حباً للحرية ، بل استجابة لبعض الدوافع العنصرية المتطرفة ؛ وهم يكرهون الإنجليز ؛ لأن الأحقاد الماضية ما برحت متأصلة فى النفوس ، ولأن مرارة الهزيمة ما زالت فى الحلوق ، ولأن الإنجليز فى نظرهم يعتبرون أجانب ودخلاء ، وهم — فيما يرون — أصحاب البلاد الأصليون !

أما الأفريقيون الجنوبيون الذين ينحدرون من أصل إنجليزى ، فقد استقر أسلافهم فى هذا البلد منذ قرن ونصف قرن على الأكثر ، وهم وإن كانوا يتعلمون لغة أهل البلاد ( الأفريكانية ) ويتكلمون بها أحياناً ، ما زالوا يعتبرون أنفسهم إنجليزاً قبل أن يكونوا أفريقيين ، ويطلقون على بلادهم الأصلية ، إنجلترا ، اسم « الوطن » ويستمع إليهم مواطنوهم « الأفريقيون » فيتساءلون عاجبين : كيف يمكن أن يحب هؤلاء القوم الأرض التى آوتهم وفاضت بخيراتها عليهم ، وهم حين يذكرون الوطن إنما يعنون أرض بلادهم الأصلية — أرض إنجلترا ؟

وفى جنوب أفريقيا إلى جانب هذين الفريقين ، نفر من البولنديين الذين وفد أجدادهم إلى البلاد حينما انتابت حمى التنقيب عن الذهب والماس أناساً من شتى الأجناس ، أو فروا من وجه المظالم القيصرية وطغيان الحكام . . .

كما تتراوح نسبة اليهود فى أفريقيا بين ٦ و ٧ ٪ من مجموع عدد السكان ، ومعظمهم من ذوى الثقافة العالية ، فمنهم أساتذة فى الجامعة ، وعدد كبير من الأطباء والمحامين المرموقين ؛ ويسيطرون على المصارف والتجارة والصناعة ، وشأنهم فى ذلك شأن اليهود فى كل بلد ، فلا غرابة إذا نشأت فى البلاد حركة قوية لمناهضة اليهود . . .

تلك هى العناصر التى يتألف منها فريق السكان الأوربيين فى الاتحاد ، ويشتد بينها التناحر والتنافس ، ويسود بينها الحسد والبغضاء .

## الأجناس غير الأوربية

ليس من اليسير أن يميز المرء بين الصينى واليابانى ، فى الشرق الأقصى ، إلا بعد أن يعيش هناك فترة من الوقت فتتضح له بعض الفوارق المميزة .

وأصعب من ذلك على الإنسان الذى يزور جنوب أفريقيا ، أن يتبين هذه الفروق بين مختلف الأجناس الملونة التى تعيش هناك ، فهو يصادف فى ألوان البشرة تدرجاً بين البرونزى والنحاسى والعاجى ، فيختلط عليه الأمر ويضرب فى تيه الفروض وقلما يستطيع التحديد ، فإذا ما أراد التعرض لمشاكل هذه الأجناس ، ألفاها متعددة متشابكة أليمة ، وتبين المشاكل الكثيرة فى علاقات هذه الأجناس الملونة بعضها ببعض ، وفيما بينها وبين الأجناس الأوربية من بغضاء وكراهية وحسد ؛

ويمكن القول إن أفضل الملونين حالا ، عدا الهنود ، هم جماعة المولدين الذين يعيشون فى ولاية الكاب . . .

فإذا تراءى لك أن تتحرى منشأ هؤلاء المولدين وتتعرف على الأصل الذى انحدروا منه ، بدا لك الحرج ، وزاغت النظرات ، وجاءك الرد مقتضباً جافاً :

ـ هم الجنود يا سيدى والملاحون . . .

ومما يجدر ذكره أن مجرد العلاقة بين البيض والسود ، تعتبر حتى ولاية الكاب ، من الأمور التى تخدش الناموس ؛ فما بالك بالزواج الذى يعد كفراً وخروجاً على الدين ؟ !

وأكثر من هذا أن قوانين ولايتى الترانسفال والأورانج تحرم الزواج بين البيض والملونين !

ولكن ، هل كان الحال على هذا المنوال من قبل ؟

كلا ، فعندما نزل الهولنديون فى أراضى جنوب أفريقيا ، كانت تعيش فيها قبائل البوشمان والهوتنتوت ؛ وكان رجال البوشمان يعانون شظف العيش ويقتاتون من الصيد والقنص ، فى حين كان الهوتنتوت رعاة رحَّل يسعون إلى المراعى الخصبة ، ولذا كانوا ينظرون نظرة عداء إلى هؤلاء الأجانب الذين حلوا بأراضيهم وحرموهم مراعيهم ، فقامت بين الطرفين حرب غير متكافئة ، يشن فيها الأوربيون عليهم الغارة تلو الغارة ، ويصيدون الرجال كما تصاد الوحوش ، ثم يأخذون نساءهم وأطفالهم سبايا وأسارى إلى المزارع الأوربية ؛ ولما كان عدد الأوربيات ضئيلا فى ذلك

العهد ، فقد اتخذ البيض من نساء الهوتنتوت خليلات ، وكان هذا منشأ المولدين الحاليين الذين يمتازون بحدة الذكاء وسرعة الخاطر والحركة ، فضلا عن المواهب الفنية ، ففيهم الموسيقى البارع والممثل المجيد . . .

وفى ولاية الكاب الآن طبقة من التجار المولدين وذوى الحرف اليدوية الناجحة ، لا يعترض سبيل تقدمهم سوى ندرة المدارس الصناعية وقوانين التفرقة العنصرية الغاشمة .

وفى حى مجاور خاص ، تعيش جماعة أخرى نزح أسلافها من بلاد الملايو وجزيرة جاوة وصحراء العرب والهند والصين ، واحتفظت على مر السنين بطابعها الخاص وتقاليدها وعاداتها ، فضلا عن رابطة الإسلام والمذهب السنى التى تجمع بين أفرادها .

وهذه الأجناس الملونة تكاد تعيش منبوذة فى مختلف ولايات الاتحاد ؛ وقد يتصادف أن ينشأ فى أسرة من المولدين طفل ذو بشرة بيضاء ناصعة ، فيقبل فى المدارس الأوربية ، ولكيلا تقف أسرته عقبة فى سبيل دخوله الجامعة ، يختفى الحنان ، وتتوارى العاطفة الأبوية ، حتى يشق الصبى طريقه فى الحياة ، ويكفل لنفسه مستقبلا سعيداً ؛

ومما يروى فى هذه المناسبة أن طفلا أسمر ولد لأسرة مولدة ميسورة الحال ، أصبح أفرادها بمرور الأجيال ذوى بشرة بيضاء لا تكاد تختلف عن بشرة الأوربيين ؛ وكان هذا الطفل متوقد الذكاء طموحاً ، غير أنه أدرك بالسليقة أن لونه الأسمر سيكون عقبة فى سبيل مستقبل إخوته ، ولما تسلطت هذه الفكرة على ذهنه ، استبد به اليأس وملك عليه مشاعره ،

فألقى بنفسه من النافذة حتى يستريح ويريح ذويه !

على أن وطأة معاملة الملونين قد خفت شيئاً ما فى ولاية الكاب ، حيث تغلب روح التسامح ، فحق التصويت فى الانتخابات مكفول للمولدين بشرط معرفة القراءة والكتابة ، وإن يكن الحد الأدنى للإيراد السنوى ٥٠ جنيهاً ؛ كما أن للمولدين الحق فى ملكية العقار ، وحرية المرور فى الأحياء الأوربية دون حاجة إلى إبراز جواز المرور ، فضلا عن جواز قبول عضويتهم فى بعض النقابات الأوربية !

أما الهنود ، فمن نافلة القول أن يشار إلى حضارة شعبهم التى سطعت على العالم منذ آلاف السنين ، فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تضرب فى دياجير البدائية ، ويلبس أهلها جلود الحيوان ، ويعيشون على الأعشاب البرية وأوراق الأشجار فى الغابات . . .

لقد نزح الهنود إلى جنوب أفريقيا منذ ثلاثة قرون للعمل فى مزارع قصب السكر ، فأقاموا فى أراضى الاتحاد واتخذوا منها وطناً ثانياً ، وبلغ تعدادهم حسب الإحصائيات الأخيرة ٢٨٢ ألف نسمة ، يعيش معظمهم فى ولاية الناتال وميناء ديربان ، ومن بينهم عدد من رجال الأعمال والتجار الناجحين ، ورجال الفكر المبرزين ، فلا عجب إذا طالبوا بحقوقهم المشروعة ؛ وقد عرضت شكوى الهنود على الأمم المتحدة فى ١٩٤٧ ، ووقف إلى جانبهم مندوبو ٢٦ دولة ؛ ولذا تعتبر مشكلة الهنود فى جنوب أفريقيا ذات أهمية دولية ، يتعين دراستها عن كثب ، وسنعود إليها مرة أخرى فى بعض فصول هذا الكتاب .

ثم يأتى فى المرتبة الدنيا ، طبقة الكادحين السود ، الذين يطلق عليهم اسم ( الأهالى ) ، أو ( الكفرة المتوحشين ) ، إمعاناً فى احتقارهم ...

هؤلاء القوم نزحوا فى الأصل من المناطق الاستوائية ، حيث كانوا يعيشون على مقربة من ساحل أفريقيا الشرقى ، وحيث اختلطوا بالعرب والمصريين وزنوج الكونغو ، ثم هاجروا إلى جنوب أفريقيا فى فترات متقطعة خلال عدة قرون ؛ وكثيراً ما نشب القتال بينهم وبين قبائل البانتو ، إلى أن اتحدت كلمة القبائل إزاء الخطر الأبيض ، خطر البوير الذين اقتحموا بلادهم ، فقامت بين هذه القبائل وبين عدوها المشترك معارك دموية ، وحروب فناء دامت زهاء قرن ، حتى كسر البيض شوكة رجال البانتو وأجلوهم عن أراضيهم الخصيبة ، ثم تعمدوا أن ينالوا من كبرياء هؤلاء المحاربين الأشداء ، فحددوا لهم أماكن خاصة يقيمون بها ، ولا يجوز لقدم أوربية أن تطأها ، ثم شددوا النكير على السود ، فأبهظوا عاتقهم بالضرائب المختلفة ، حتى بلغ متوسطها السنوى على كل فرد مائة وخمسين قرشاً بحساب العملة المصرية ، فاضطر الكثير منهم إلى هجران الزراعة والبحث عن عمل لدى الأوربيين فى المزارع والمدن ، مهما تكن طبيعة هذا العمل أو تكن ضآلة أجره !

ولا يخفى أن هذه سياسة مرسومة للهبوط بأجور العمال السود إلى الحد الأدنى ، ولكنهم مع هذا الحرمان الشنيع والظلم الاجتماعى البيّن والسخرة المفروضة عليهم ، لم يزل عددهم فى ازدياد ، حتى بلغ نحو مليونى نسمة . . .

فلما ازدادت حالهم سوءاً ، اتجه عدد كبير منهم إلى المناجم والمصانع على مقربة من مدينة جوهانسبرج ، حيث يعيش منهم الآن أكثر من ٣٠٠ ألف عامل .

* * *

على أن هناك فريقاً آخر من سكان جنوب أفريقيا ، ينتمون إلى أصل أوربي ، ويمتازون ببياض البشرة ، وهم مع ذلك يعيشون إلى جانب السود والملونين بالأحياء المخصصة لهم فى المدن الكبرى ، ويطلق عليهم اسم « الفقراء البيض » ، ولا يقل عددهم عن نصف مليون نسمة ، مبعثرين فى سائر ولايات الاتحاد . . .

وقد ذكر بعض السياح أنه شاهد ذات يوم أحد هؤلاء المحرومين من نعيم الدنيا ، يسير حافى القدمين على مقربة من الفندق الذى كان ينزل فيه ، وكان مهلهل الثياب ، تبدو آثار الفاقة على وجهه ، كث الشعر ، طويل اللحية ، فسأل السائح صاحبه عما إذا كان هذا الرجل من فقراء البيض ، وكيف وصلوا إلى هذه الحالة .

قال صاحبه : إن لكل منهم ظروفه الخاصة ، فقد يكون واحد من المهاجرين الذين لم يتأقلموا ولم يندمجوا فى بيئة الاتحاد ، وقد يكون صاحب عمل ثم أقعده المرض ففقد مركزه وأصبح متعطلا ، وقد تكون طبيعته مسئولة عن حاله ، فهو إما سكير ، أو خامل ، أو ممن يستعذبون البطالة والكسل ؛ وأكثر هؤلاء من أولاد المزارعين البوير الذين يدينون بمبدأ « ابذل أدنى جهد فى سبيل أكبر قدر من الجزاء ! »

ثم مضى صاحبه يقول له : إن البوير درجوا على توزيع أراضيهم بين أبنائهم بالعدل والقسطاس ، ولما كانت كثرة النسل إحدى مميزاتهم ، فإن الأنصبة تتضاءل جيلا بعد جيل ، إلى أن تضيق الأرض بمن عليها ، وتقل الأرزاق ، فيهيم الأولاد على وجوههم طلباً للقمة العيش فى المدن الصناعية ؛ ولما كانت ثقافتهم محدودة ، وليس لهم معين من المعلومات الفنية التى تؤهلهم لشغل المناصب اللائقة وتدر عليهم ربحاً مناسباً ، فإنهم يقبلون على الأعمال العضلية الدنيا ، وينافسون السود فيما يتقاضون من أجور ضئيلة ، لذا تجد عدة آلاف من هؤلاء المساكين يتهافتون على الأشغال الشاقة ، فى مد الخطوط الحديدية ، وتعبيد الطرق ، وغرس الغابات ، وتفريغ البضائع على أرصفة الموانى . . .

ثم اختتم الرجل حديثه قائلا : إن هذه هى إحدى المشاكل العويصة التى تواجه الاتحاد وعليه أن يجد لها حلا . . .

هذه العناصر المختلفة المتعادية المتباغضة ، يزعم كل فريق منها أن جنوب أفريقيا وطنه ، وينكر على غيره من العناصر حقوق المواطن !

ثم ها هو ذا بناء البرلمان الشامخ حيث يجتمع ١٥٣ نائباً و ٤٤ شيخاً ، يمثلون مليونين وثلثمائة ألف أوربى ، ولا يمثل الأجناس الأخرى التى يبلغ عددها الملايين ، ثلاثة من النواب ومثلهم من الشيوخ ، لا يجرى انتخابهم على النحو المألوف . . .

والآن فلنعد عشرين عاماً إلى الوراء . . .

لقد انفرجت الأزمة الاقتصادية العالمية ، ونامت الأحقاد التى

كانت تملأ القلوب ، فتأسس حزب الاتحاد الذى كان على رأس برنامجه : العمل لمصلحة الجميع ، وتعاون عناصر الأمة كافة فى سبيل خير البلاد . . .

وكان فى صفوف المعارضة وقتذاك ، الحزب الجمهورى الذى يضم العناصر المعادية للإنجليز ، وحزب الدومنيون الذى يضم العناصر الإنجليزية المتعصبة ، وأخيراً حزب العمال . . .

وتولى الجنرال هرتزوج زمام الحكم ، فدعا الجنرال سمطس لتقلد منصب نائب الرئيس فى الوزارة الائتلافية ، على الرغم من أنه كان ألد أعدائه السياسيين ، إذ كان يعيب عليه ميوله الإنجليزية الصارخة . . .

وظلت هذه الوزارة فى مقاعد الحكم ست سنوات ، حتى عقد البرلمان جلسته التاريخية فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ ، فطلب هرتزوج إلى الجنرال سمطس أن يؤكد في البرلمان وقوف اتحاد جنوب أفريقيا على الحياد بين المعسكرين المتحاربين وقتذاك ، فما كان من سمطس إلا أن صعد المنبر ، وألقى خطاباً حماسياً يدعو فيه البلاد إلى الوقوف بجانب الحلفاء ، ثم ناشد أعضاء المجلس أن يزنوا الأمور بميزان العقل وأن يحتكموا لضمائرهم عند الاقتراع . . .

ولشد ما فوجئ هرتزوج عندما أعلنت نتيجة فرز الأصوات ، فقد اقترع لدخول الحرب ٨٠ نائباً ، واقترع للحياد ٦٧ نائباً ، وكانت الأغلبية ضئيلة ، ولكنها كانت كافية لتحمل حكومة الاتحاد على ما بذلته من جهد حربى جبار ، لم يقتصر على غزو الحبشة ، بل امتد



الجنرال هرتزوج ، من رؤساء الوزارات السابقين

إلى ميدان شمال أفريقيا وكسر شوكة إيطاليا ؛ هذا إلى الجهد الاقتصادى الضخم الذى كان له أثره فى انتصار الحلفاء !

وعلى أثر ذلك طلق هرتزوج السياسة ، واعتكف فى عقر داره حزيناً يائساً حتى قضى نحبه !

وجاءت نتيجة الانتخابات التى أجريت خلال عام ١٩٤٣ معززة لمكانة حزب الاتحاد فى قلوب الشعب ، ومؤيدة لمواصلة الجهود فى سبيل فوز الحلفاء .

أما المعركة الانتخابية التالية (١٩٤٨) فدارت حول المشكلة العنصرية التى ازدادت حدة فى أعقاب الحرب ، وصارت أعقد من ذنب الضب...

# برلمان لغير أهله

وقد ناقش البرلمان فى إحدى جلساته مشكلة الهجرة ، وهى من المسائل التى تسترعى اهتمام الشعب والحكومة على السواء ؛ وكان الجنرال سمطس يريد الترخيص بدخول عدد يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً من العمال الأوربيين سنوياً ، بحجة تدعيم الجنس الأبيض فى أراضى الاتحاد ، وقدمت حكومته مشروع قانون بذلك ، فلما بدأت المناقشة ، وقف الدكتور مالان ( زعيم المعارضة وقتذاك ، ورئيس الحكومة الآن ) يؤكد أن السماح بهجرة هذا العدد من العمال الأوربيين ينطوى على ضرر بالغ بمصالح أولئك الذين استوطنوا البلد منذ أجيال وقرون . . .

ولم يكن هذا الموقف عجيباً من مالان زعيم الحزب الوطنى ، فإن من خصائص هذا الحزب ، مقت العناصر الأجنبية ، مهما تكن جنسياتها ونحلها ، وإيثار العزلة فى السياسة الدولية ، وفى الجملة كراهية كل جديد مستحدث . . .

ثم وقفت السيدة بالنجير ، ممثلة الأجناس الملونة ، فألقت خطاباً رائعاً استنكرت فيه فكرة استدعاء العناصر الأوربية العاملة ، فى حين أن مئات الألوف من السود فى الاتحاد متعطلون يتضورون جوعاً ، وغير مسموح لهم بدخول معاهد التعليم الصناعى ، فلا ذنب عليهم فى عدم

حصولهم على المؤهلات الفنية التى تسمح لهم بشغل المناصب التى تدر عليهم ما يكفى لإشباع بطونهم وإعالة أسرهم . . .

كان هذا محور المناقشات التى دارت فى البرلمان ، إلا أننا سنرى فيما بعد ، كيف نال مشروع حكومة سمطس موافقة المجلس . . .

والآن ، نحاول أن نصف للقارئ قاعة الجلسات التى اجتمع فيها هذا البرلمان لمناقشة هذا الموضوع :

نحن الآن فى إحدى الشرفات ، هذه القاعة كأنها صورة مصغرة حديثة لمجلس العموم البريطانى ، ففيها النظام السائد فى إنجلترا ، نظام الحزبين : حزب الحكومة وحزب المعارضة . . .

وهذا رئيس المجلس يحتل مقعد الرياسة ، فى ظل صورة ضخمة للملك إدوارد السابع ، بجوارها صورة أخرى للملكة الكسندرا . . .

وفى مرتبة أدنى منه تجلس هيئة سكرتيرية المجلس ، فى مواجهة النواب الذين يتقاسمون مقاعد ذات اللون الأخضر القاتم ، فيحتل حزب الأغلبية الجناح الأيسر ، وتحتل المعارضة الجانب الأيمن . . . تماماً مثل بريطانيا . . .

وهاهو ذا الجنرال سمطس — الذى يأبى أن يطلق عليه لقب المارشال فى بلاده — وقد ارتدى بذلة مدنية رمادية اللون ، وارتسمت على محياه سمات عدم الاكتراث التى يتصنعها فى أمثال هذه المناسبات ؛

وبالقرب منه جلس وزير ماليته هوفمير ، أشد أعضاء الحكومة انتصاراً للمظلومين والمحرومين من الملونين . . .



الدكتور مالان رئيس الوزراء الآن ووزير الخارجية

وفى الناحية الأخرى جلس زعيم المعارضة ، الدكتور مالان ، ذو القناع الفولاذى والنظرات الملتهبة ، وقد تقلصت عضلات وجهه فزادته قسوة وتحدياً ، على أثر الخطاب الذى ألقاه وهاجم فيه عدوه اللدود سمطس أكثر مما حمل فيه على مشروع الحكومة بشأن الهجرة . . .

إنه رجل صلب ، لم يفتر ثغره عن ابتسامة طوال حياته ، ويعتبر فى بلاده نموذجاً لرجعية البوير ، شديد التمسك بأهداب الدين ، ولا عجب فقد تخرج فى مدرسة اللاهوت ، وشغل منصب وزير الكنيسة الهولندية زهاء ثمانى سنوات ، وهو إلى ذلك عدو لكل إصلاح يرمى إلى تحسين حالة السود ، وعدو لبريطانيا واليهود على السواء .

ويلى الحزب الجمهورى فى مقاعد البرلمان ، الأعضاء السبعة الذين ينتمون إلى حزب الدومنيون ، وعلى رأسهم الكولونيل ستالارد ، الذى يفكر بعقلية عهد الملكة فكتوريا ، ويصر على أن تكون ثيابه على طراز ذلك العهد ، وهو إلى ذلك استعمارى النزعة ، شديد الإيمان بوطنه الأصلى ( بريطانيا ) ، والمعروف أنه جاء إلى جنوب أفريقيا متطوعاً ، أثناء حرب البوير ، واستوطن الاتحاد منذ ذلك العهد بقصد مناهضة البوير ، ولكنه برغم هذا محل تقدير وعطف فى مختلف الدوائر ، لما اشتهر به من استقامة وثبات على المبدأ . . .

ثم يلى أنصار الدمنيون ، أعضاء حزب العمال التسعة ، وعلى رأسهم زعيمهم ( ميدلى ) ، الذى كان من قبل عضواً بارزاً فى الحزب الجمهورى ، ثم حدث أن تقدمت الحكومة بمشروع قانون يجيز عضوية الهنود فى المجالس

البلدية ، فلما عرض على المجلس ، وقف مالان من المشروع موقف المعارضة ، ولكن ميدلى خرج على النظام الحزبى ، مع ثلاثة من زملائه ، وأقروا مشروع الحكومة ، ثم غادروا قاعة المجلس فى وقار وكأن شيئاً لم يحدث . . .

وها هو ( وانليس ) أحد أعضاء حزب العمال ، وهو من القلة التى تجاهر بمناصرة غير الأوربيين ، ومن أجل ذلك يعارض مشروع القانون الذى يجيز دخول العناصر الأوربية — ولو كانت ألمانية — فى أراضى الاتحاد ، ويتساءل فى سخرية : لماذا لا تشترط الحكومة أيضاً أن يكون المهاجرون الألمان من النازى ؟

ثم يمضى قائلا : ولكم أيها السادة أن تبيحوا دخول البولنديين ، وأهل يوغسلافيا ، والذين يحملون على سواعدهم شارة الصليب المعقوف ، وأن تمنعوا دخول الفرنسيين الذين حاربوا إلى جانب رجالنا من أجل الحرية . . . لكم أن تفعلوا ذلك ، فأنتم أحرار ، ولكن تذكروا أيها السادة مواطنيكم المحاربين القدماء ، الذين تأبى كرامتهم أن يقفوا جنباً إلى جنب مع أعداء الأمس فى المصنع والمزرعة ؛

ودقت السيدة بالنجير بعد ذلك ناقوس الخطر فحذرت المجلس من العواقب الوخيمة التى تترتب على إقرار القانون ، وذكرت أن مشكلة الزنوج تؤرق أجفان الأمريكيين ، مع أن عددهم لا يزيد هناك على ١٥ مليوناً ، فى حين يبلغ عددهم هنا ١٣٠ مليون ؛ ثم قارنت بين الموقف فى الولايات المتحدة وبينه فى جنوب أفريقيا ، حيث يزيد عدد الملونين

على أربعة أضعاف عدد الأوربيين ؛ ثم خلصت إلى إنذار مواطنيها بأن الطوفان لن يلبث أن يطغى فيهلك الأخضر واليابس والحرث والنسل . . .

ويعترض أحد النواب بأن الأهالى منقسمون بعضهم على بعض ، فالمولدون يمقتون السود ويحتقرونهم ، وهؤلاء يردون لهم الصاع صاعين ، والملونون يعتبرون الزنوج قوماً متوحشين ، وهؤلاء يتفاخرون بصفاء محتدهم وخلوهم من العناصر الدخيلة ، ويعتبرون الملونين بلا أصل ، فى حين يعتبر الهنود أنفسهم فى مرتبة تسمو على أولئك وهؤلاء ، وهم على حق فيما يقررون . . .

فيرتفع صوت آخر قائلا : وما يدريك أن هذه العناصر ستظل جامدة مستسلمة لحكم القضاء أبداً ؟ ألا يجوز أن تشعر ذات يوم بحاجتها الماسة إلى توحيد الكلمة وجمع الصفوف ، فتنفجر المشاعر عندئذ وتقع الطامة الكبرى !

ثم يمضى النائب قائلا : أليس من الحكمة أن يمنح هؤلاء الملونون حق التصويت ، فقد تهدأ ثائرتهم حين يصبحون ناخبين ؟

فيعترض أحد النواب متسائلا : وأين هى الحكومة التى تجسر على التقدم بمشروع كهذا ؟ إنها لا محالة ساقطة ، ولن تلبث نار الحرب الأهلية أن تستقر .

* * *

قال السائح الغريب لرفيقه الأبيض وقد استمع إلى كل هذا الجدل حول مشروع حكومة سمطس : إن الشعوب لا تؤمن بالديموقراطية إلا بعد ممارستها !

فأجاب صاحبه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة : هذا أمر معلوم يا سيدى ، ولكن تحقيقه أبعد منالا من نجوم السماء ؛ وكل ما أستطيع تقريره ، هو أن العالم ينظر إلى اتحاد جنوب أفريقيا نظرة الخارج على القانون . تلمس هذا فى دوائر الأمم المتحدة وفى المقامات السياسية الأمريكية . . .

ويصمت المتحدث برهة ثم يستأنف : أعتقد أن المشكلة الاقتصادية قبل كل شيء ، وأرى من واجبنا ، نحن البيض ، أن تبقى وصايتنا على الزنوج فترة أخرى من الوقت ، على ألا تنسينا هذا أن علينا لهم واجبات قد أهملناها زمنا طويلا ، فلابد من معاملتهم ، منذ اليوم ، معاملة المواطنين الذين يساهمون بقسط فى تنمية الثروة القومية ، فتكفل لهم حقوقاً معينة ، ونحقق أمانيهم المشروعة ، ونعمل ما وسعنا الجهد على تقدمهم وتحسن حالتهم المعنوية والاجتماعية ، ونمنحهم المزيد من الأرض لنضمن لهم حياة أكثر رغداً ، ونرفع أجورهم فى المدن ، حتى نرفع عنهم عبء الفاقة ، ونزودهم بالمساكن الصحية بدلا من الأكواخ التى يعيشون فى ظلماتها ، وفوق ذلك يجب أن نسمح لمن نال منهم قسطاً من التعليم بشغل المناصب الحكومية ، والجلوس فى البلديات والمجالس القروية وتحت قبة البرلمان ، فهذا فى نظرى أجدى من منحهم حق التصويت الذى أعتقد أنه لن يفيدهم فائدة محسوسة .

وقد بدأت حكومة الاتحاد تحس بالخطر المحدق بالاتحاد من جراء إهمال شأن الوطنيين منذ سنة ١٩٤٦ ، فقد ارتفعت ميزانية تعليم الزنوج

مليوناً من الجنيهات فى ذلك العام عما كانت عليه فى العام الذى قبله ، ثم تضاعفت مخصصات التعليم بعد ذلك أربع مرات منذ تلك السنة ، وبرغم هذا ما زال يعانى الأمية أربعة من كل خمسة أطفال زنوج . . .

وكانت حجة المتحدث الأبيض قائمة على أساس أنه ليس من الميسور بناء المدارس التى تستوعب العدد الضخم من الأطفال الزنوج فى فترة قصيرة ؛ ثم مضى يقول : إن أهم ما يجب أن تتعجله الحكومة ، هو إلغاء قانون « الحواجز الاجتماعية » ، حتى تتيح لكل فرد من الأهالى فرصة الالتحاق بالمعاهد الصناعية ، فيتخرج منها صاحب حرفة يدوية أو عاملا ذا محصول وفير من المعلومات الفنية ، بدلا من بقاء الحال على ما هى عليه ؛ وكأنى بهؤلاء الزنوج قد حكم عليهم حكماً أبدياً بألا يزاولوا سوى الأعمال العضلية ، شأنهم فى ذلك شأن السوائم أو عمال السخرة .

واستمر المتحدث الأبيض يقول : وأكبر الظن أن العمال الأوربيين بدءوا يدركون أن العمال الزنوج إخوة لهم ، وآية ذلك ما حدث فى المؤتمر العام لنقابات العمال الذى عقد أخيراً ، عندما تقدم فريق باقتراح يرمى إلى استبعاد نقابات العمال السود والفصل بينها وبين النقابات الأوربية ؛ فقد رفض هذا الاقتراح بأغلبية ٨٥ ألف صوت ، ضد ٣٦ ألفاً . ومن جهة أخرى أدركت بعض المجالس البلدية مدى خطورة التفرقة فى المعاملة بين الأوربيين وغيرهم ؛ فأباحت التحاق السود بالمدارس الصناعية التابعة لها ، ضاربة بقوانين الاتحاد عرض الحائط : ولم تقف عند هذا الحد ، بل استخدمت ٢٥٠ من خريجى هذه المدارس فى

الوظائف الفنية ؛ وهو عدد قليل ، ولكنه على ما أعتقد خطوة موفقة ، والصبر مفتاح الفرج . . .

قال السائح متسائلا : وإن لم يصبر الوطنيون السود حتى تؤدوا إليهم كل حقوقهم ؟

قال رفيقه الأبيض : فى هذه الحالة تقع أوزار الآباء على رءوس الأبناء ! . . .

* * *

هذه الصورة العابرة لبرلمان الاتحاد ، ولمشروعات حكومة الاتحاد ، وللمناقشات التى تدور حول هذه المشروعات فى داخل ذلك البرلمان أو فى خارجه — تصف لنا إلى حدما ، الحالة التى يعيش فيها الوطنيون فى ظل حكومة تنتسب إليهم وليست منهم ، وبرلمان يتحدث باسمهم وليس فيه رأى لهم ، ومشروعات تستهدف استغلالهم وتزعم أنها لخيرهم . . .

يرى ذلك كله السائح الغريب ، ولا ينكره المستوطن الأبيض ، ويحس بآلامه الوطنيون مرارة فى حلوقهم ، وسخطاً تغلى به مراجلهم ، وأضغاناً تتلظى فى قلوبهم ؛ والقدر يتربص . . .

# المارشال سمطس . . . رجل إفريقيا

والعالم حين يذكر اليوم جنوب أفريقيا ، يثب إلى ذاكرته اسم المارشال سمطس ، رجل أفريقيا وصاحب رأيها فى الحرب وفى السلام ، ورئيس حكومة اتحاد جنوب أفريقيا فترة غير قصيرة . . .

وإنه لمما يدعو إلى السخرية والألم ، أن يكون الرجل الذى يقترن اسمه باسم هذه المنطقة الكبيرة ، ويتحدث باسمها فى المحافل الدولية ، غريباً عنها ، ليس له فيها جذر ولا أبوة عريقة ، لأنه واحد من سلالة المستعمرين الأولين ، الذين وفدوا إلى هذه الأرض البكر ليستغلوا ، ثم استوطنوا ، ثم أبوا على الوطنيين الأصليين أن يساووهم أو يقاربوهم فى حقوق كل مواطن بين مواطنيه . . .

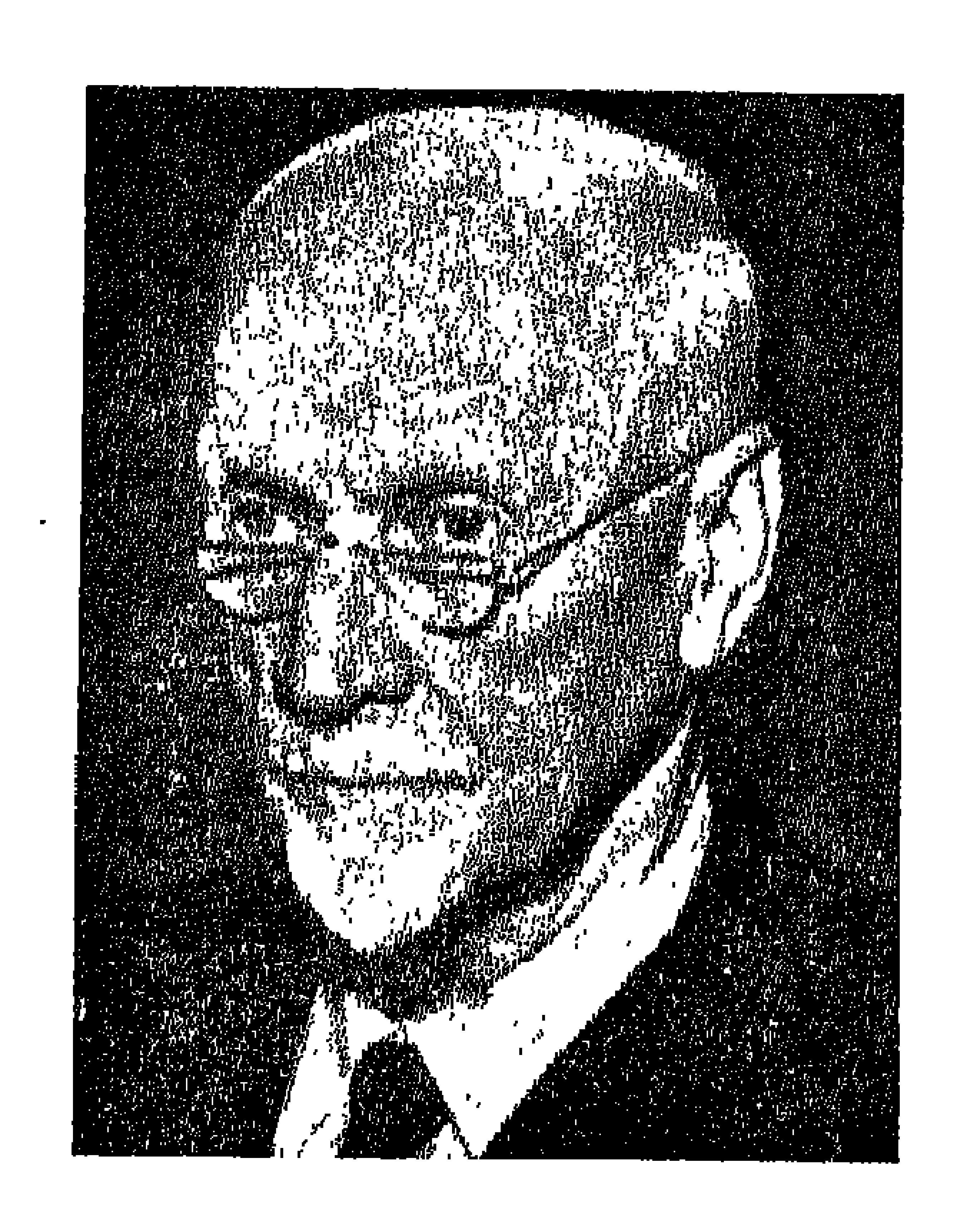
هو أفريقى حين تذكر حقوق الأفريقيين . . .

وهو أوربى أبيض حين يراد الخير للأوربيين البيض على حساب الوطنيين . . .

وهو مكافح ضد الاستعمار البريطانى حين يكون الاستعمار البريطانى حائلا بينه وبين ما يطمح إليه من سلطة الحكم وجاه الرياسة . . .

وهو إنجليزى لحماً ودماً حين يضمن لنفسه سلطة الحكم وجاه الرياسة فى ظل المستعمرين الإنجليز . . .

وهو إلى ذلك ديمقراطى ثورى حين تكون الثورة والديمقراطية سبيلا



المارشال سمطس . . . رجل أفريقيا !

يبلغ به ما يريد من اكتساب عطف الجماهير . . .

وهو استعماري رجعي يؤمن بالعنصرية وضرورة التفرقة فى الحقوق والواجبات بين البيض والسود ، حين تكون العنصرية سبيله إلى ما يريد . . .

وهو بكل هذه المتناقضات رجل أفريقيا الجنوبية فى المحافل الدولية والإذاعات العامة والأنباء الصحفية وعلى ألسنة المتحدثين عن السياسة الأوربية الأفريقية ؛ وأهل جنوب أفريقيا الأصليون فى محنة المهن الشاقة ومذلة السياسة العنصرية يرون ويسمعون ولا ينطقون ، ولكنهم لابد أن ينطقوا يوماً ما ، ليقولوا : أفريقيا لنا ، لا للمستغلين البيض من سلالة الأفاقين الأولين ، ولا للمستعمرين البريطانيين . . .

وبعد ، فمن هو المارشال سمطس هذا ، ما هو فى تاريخ هذه البلاد ؟ وكيف ابتدأ ؟ وإلى أى هدف يعمل ؟ . . .

* * *

إنها حياة حافلة بالمفاجآت والمغامرات . . .

وسجل حافل بالمجد والعظمة . . . الشخصية !

كان فى بدء حياته ألد أعداء الإنجليز ، ثم أصبح من أشد أنصارهم حماسة . . .

كان قائداً فى الثامنة والعشرين من عمره ، على رأس قوة من الفدائيين البوير ، أذاقت الإنجليز الغاصبين مرارة الهزيمة مراراً خلال عام ١٨٩٩ ؛ ثم صار أثناء الحرب العالمية الأولى ، أكبر قوة دافعة ورأس مفكر فى مجلس الوزراء البريطانى !

وفى ١٩١٩ ذيل بتوقيعه معاهدة فرساى . . .

ثم استقبل ملك الإنجليز فى أرض أفريقيا الجنوبية ، حيث دوخ من قبل جنود جدته فكتوريا . . .

وقبض بيد من حديد على عنان الحكم فى البلاد ، حيث اجتمع له مريدون لا يترددون لحظة فى إلقاء أنفسهم فى لظى الجحيم بإشارة من يده ، وحيث يتربص به فى نفس الوقت ، أعداء أشداء لا يتورعون عن رميه بأشنع التهم ؛ ولكن مريديه وأعداءه جميعاً يعترفون بأنه شخصية جبارة ، تجمع بين مرونة الساسة الدهاة وصلابة العسكريين المحنكين .

وأغرب من كل هذه المتناقضات فى شخصية سمطس ، أنه فى رأى الشعوب الديموقراطية ، ذو ميول رجعية صارخة ، فى حين يزعم مواطنوه أنه ذو نزعات ثورية ، بل لقد يذهب البعض إلى حد اتهامه بالشيوعية !

وكم من مرة أقام نفسه مدافعاً عن الزنوج ؛ وقد نادى فى خطاب شهير ألقاه منذ سنوات ، بضرورة الكف عن اضطهاد الزنوج والمساواة فى المعاملة بينهم وبين سائر رعايا جنوب أفريقيا ؛ ثم أعلن أن فى نيته تطبيق مبادئ ميثاق الأطلنطى على مختلف عناصر السكان فى البلاد ؛ وكان هذا التصريح سبباً فى إثارة الحزب الجمهورى المعارض ، وما أعقب ذلك من فوز خصمه مالان وحزبه فى الانتخابات التالية ؛ ثم لم يكد يحل خريف سنة ١٩٤٦ ، حتى تراجع عن تصريحه هذا ، وأعلن أنه يطالب ، باسم مواطنيه ، بحرية تطبيق القوانين العنصرية داخل حدود البلاد ؛ وقد وصفه بعض خصومه وقتذاك بأنه كالحرباء ، يتلون حسب

الظروف المحيطة به ، وأشفق عليه بعضهم فوصفه بالانتهازية . . .

ونحن نثبت فيما يلى ، فصلا كتبه صحفى إنجليزى عن سمطس هذا ، يكشف بعض الكشف عن شخصيته وهدفه ، قال :

كان أول عهدى بالمارشال سمطس ، حين قابلته بعد توقيع معاهدة الصلح بين الحلفاء ودول أوربا الوسطى ، فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وكان هدف زيارتى إياه أن أظفر بحديث صحفى ، فلما دخلت عليه ، أثار دهشتى وإعجابى ، عدم تقيده بالأصول المرعية ، وظرفه الذى يشعر الزائر بأن معرفته له ترجع إلى زمن طويل ، وحيويته الجبارة التى لا تتوافر إلا فى الشباب اليافعين . . .

وكان قد حدد موعد المقابلة فى ساعة مبكرة من الصباح ، فلما طرقت الباب فتحه بنفسه ، فألفيته فى لباس النوم أو ما يشبه ذلك ، ثم دعانى للجلوس ، وأخذ يتحدث عن الأشياء ويدلى برأيه فى زملائه الساسة والوزراء فى صراحة غير مألوفة فى أنداده من رجال السياسة ، بلا مواربة ولا تزويق ولا مراعاة لما يجرى به العرف فى أمثال هذه الأوساط

ثم دارت عجلة الزمن ، ورأيتنى فى حضرته مرة أخرى بعد عشرين سنة ، فلم أكد أجد تغييراً فى شخصه ، لولا ذلك المشيب الذى دب فى شعر رأسه وعارضيه ولحيته المدببة ، ولكنه فيما عدا ذلك هو هو ، بنظراته العميقة النافذة ، وبشرته الوردية التى لوحتها الشمس . . .

وأقبل على أيصافحنى فى خطا سريعة ، وهو يرتدى بذلة رمادية

اللون ، أنيقة ، فتخيل إلى أننى أجلس إلى شاب فى مقتبل العمر ، لا إلى شيخ بلغ من العمر نيفاً وثمانين عاماً ، وكانت الزيارة الملكية لجنوب أفريقيا أول ماتناوله الحديث بيننا .

قال المارشال : إنه لحدث عظيم فى تاريخ شعب جنوب أفريقيا ، الذى يعيش فى ذلك الطرف النائى من القارة ، فى شبة عزلة عن العالم ، أن يسعى إليه أفراد الأسرة المالكة البريطانية بالزيارة فيلمس فيهم شعب الجنوب بساطة ما كانت لتخطر بباله ، ويحس بحدبهم عليه ، واهتمامهم بكل صغيرة وكبيرة من شئونه . . .

ويستطرد المارشال الهرم فى وصف الاحتفالات وألوان الحفاوة التى قوبلت بها الأسرة المالكة البريطانية فى جنوب أفريقيا . . .

ولكن الصحفى لا يدعه وما هو فيه من ذلك الحديث ؛ إذ كان يعلم أن بعض الشخصيات قد ردت الدعاوى التى وجهت إليها لحضور الاحتفالات التى أقيمت تكريماً للأسرة المالكة ، وأن البعض الآخر لم يبد اعتذاراً من عدم حضورها ، فيسأله : ولكنى أعلم يا سيدى المارشال ، أن من بين شعب جنوب أفريقيا عدداً كبيراً من الجمهوريين ، المعادين لبريطانيا ؛ أليس كذلك ؟

فيجيبه المارشال : هذا حق ، غير أن هذا الفريق من الناس قوم مهذبون ، فلم يخرجوا على أصول اللياقة ، ولم يظهروا عواطفهم على نحو ما تعتقد ؛ وإنى لأتساءل : لماذا تتحدث عن الجمهوزية والجمهوريين ، وقد أعلنتها مراراً فى أكثر من مناسبة ، أن نظام الإمبراطورية لا يمت إلى

الملكية بسبب ، والحقيقة أننا نعيش فى ظل جمهورية على رأسها رئيس متوج ، وإن نقل إنها جمهورية رياستها وراثية ، وهذا الوضع جدير بأن يثير الإعجاب :! فنظام الكومنولث إنما يتمشى ويتلاءم مع تطورات الزمن وملابساته العصرية ، دون حاجة إلى إجراء انتخابات بين حين وآخر ، تثير الأحقاد وتوغر الصدور وتخلّف آثاراً من المرارة لا تمحى على مر الأيام ؛ فنحن أسرة من الأمم لها رب ، وإن شئت سمه رئيساً رمزياً ، يعتبر بمثابة القلب أو الرابطة القدسية ، ولحسن طالع هذه الأسرة من الأمم أن على رأسها شخصية جديرة بالحب والاحترام . . .

قال الصحفى : ولكن سيدى المارشال شهد أخيراً اجتماعاً عقده مندوبو جماعة من الأمم تعتبر أوسع نطاقاً من مجموعة الممتلكات المستقلة ؛ وبما أنكم قد شهدتم من قبل مولد عصبة الأمم ، فما رأيكم فى هيئة الأمم المتحدة ؟

قال سمطس وقد ظللت محياه سحابة ، لعل سببها هو ذلك الجدل العنيف الذى قام بينه وبين بعض مندوبى الهيئة ، لمناسبة المناقشات التى دارت حول مشكلة التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا :

إن هيئة الأمم ما زالت صغيرة تتعثر فى خطواتها ، فأخطاؤها مغتفرة ، ولكنها تعتبر تجربة تستحق كل ثقة وعطف ؛ وقد كانت عصبة الأمم معقد الآمال خلال الأعوام العشرة التى عاشتها ، إلى أن هبت العواصف على منشوريا والحبشة فاقتلعت جذورها وألقت بها فى اليم ؛ وإنا لندعو ؛ وكلنا أمل ، أن يكون مصير هيئة الأمم أسعد من مصير سابقتها ، وإن

الخلاف فى الرأى بين أعضائها على أشده ، لأن العالم يعيش الآن فى ثورة على الأوضاع القديمة ، فقد كانت أوربا من قبل تقود خطا الأمم ، ثم فقدت مهابتها بعد الحرب ، ووهنت قواها ، وتقطعت أوصالها ، فشهد العالم من ينازعها على الصدارة . . .

قال الصحفى : وما قولكم فى الحواجز الاجتماعية ، أو بالأحرى : فى مشكلة التفرقة العنصرية ؟

قال : إنها حقاً لمشكلة عويصة ، ولك أن تتصور جماعة صغيرة من البيض ، نزحت إلى القارة السوداء واستقرت فى أراضيها ؛ أليس من حقها أن تكافح فى سبيل المحافظة على تقاليدها وثقافتها ، والدماء الأوربية التى تجرى فى عروق أبنائها ؟ وما السبيل إلى صون مقومات جنسنا ، إذا لم نتبع سياسة تحول دون الطوفان الذى يهدد كياننا ؟

ثم استطرد قائلا : وأنتم معشر الأوربيين تدركون الحقائق ، لا تستطيعون إدراكها . . . لقد أدار جان جاك روسو رءوسكم بأفكاره التحريرية ، وألهاكم بنظريات كانت تجوز على العقول فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حين كانت الشعوب ترتع فى بحبوحة من السعادة والرضا ، وتريد مسلاة ترفه بها عن نفسها وتزيل سأم الحياة الرتيبة ؛ أما نحن فنعيش الآن فى محيط اجتماعى تعقدت فيه المشاكل فأخذت بخناقنا ، ولابد لها من حلول موفقة . ولا تظنن أن المساواة هى أنجع دواء للعلة التى نشكو منها ، إن الدواء الناجع هو تحقيق العدالة الاجتماعية ، وتوخى مبادئ الإنسانية فى المعاملة ؛ ولقد لوحظ أن أولاد

الزنوج المتوحشين ، إذا نالوا قسطاً من التعليم ، يطالبون بالمساواة فى الحقوق السياسية ؛ أفترى من الواجب أن يجابوا إلى مطالبهم ؟ كلا يا سيدى ، إننى أفريقى دماً ولحماً ، ويسعدنى أن أرى مواطنى كافة ، البيض منهم والسود على السواء ، يسيرون فى طريق التقدم ، على أن يكون سيرهم وئيداً ، حتى لا تنقطع أنفاسهم وتتعثر خطاهم ، فيقعدوا عن مواصلة المسير ، أو ينكصوا على أعقابهم فتكون النكسة الكبرى !

وكان حديث المارشال الهرم أشبه بحديث حلم اليقظة : أفكار تتردد ، وأمانى حلوة يزينها الخيال ويخشى صاحبها ألا تتحقق ؛ وعلى حين فجأة بدا سمطس كمن صحا من غفوة وانتقل إلى عالم الحقيقة فجأة ، فاعتدل فى جلسته ، ورنا إلى محدثه بنظرة يائسة حزينة ، ثم ربت كتفه وقال : أرجو لك مقاماً سعيداً فى بلادنا . . . ولتباركك السماء ! . . .

## رأى المعارضة

ويمضى الصحفى الإنجليزى فى تتبعه لأصول موضوعه ، فيقول :

أليس من الإنصاف ، لكى يفاضل المرء بين رأى وآخر ويصدر حكماً منزهاً عن الهوى ، أن يستمع لوجهتى النظر ؟ لقد كان هدفى من هذه الرحلة ، تحرى الحقائق ، والوقوف على أسباب التفاوت الاجتماعى بين مختلف الأجناس المستوطنة فى جنوب أفريقيا ، فبدا لى كى أتقصى الحقيقة أن أقصد إلى الدكتور مالان ، زعيم المعارضة . . .

قصدت إليه في داره لتحديد موعد للمقابلة ، فقيل لى إن الزعيم لايحب الإدلاء بأحاديث صحفية ، وليس لديه متسع من الوقت لذلك . فآمنت وقتذاك بما كان يشاع عن الدكتور مالان ، من كرهه للأجانب ، لا سيما الإنجليز ؛ وقنعت بما قسم لى ، وقصدت إلى زميله النائب الوطنى ستريدوم ، خليفته المنتظر فى زعامة الحزب ، وصاحب الآراء الوطنية المتطرفة ؛ فلما دخلت عليه ، ألفيت رجلا فى مستهل الحلقة الخامسة من العمر ، عريض المنكبين ، تنم قسمات وجهه عن قسوة وتحد وكبرياء شديدة ، ومع هذا فقد رحب بى ، وذكرنى أن رئيس الحزب أوصاه بأن يكون صريحاً فى الإجابة على أسئلتى ، إلا ما يتناول منها الوسائل التى سيلجأ إليها الحزب الوطنى فى الدعاية أثناء الحملة الانتخابية المقبلة ؛ فكانت هذه فرصة انتهزتها لسؤاله عن رأيه فى نتائج تلك الانتخابات ؛ فقال : إنه متفق فى الرأى مع زعيمه مالان على أن فوز الحزب الوطنى لا شك فيه ، بعد النتائج الباهرة التى أحرزها مرشحوه فى الانتخابات التكميلية التى أجريت خلال الفترة الأخيرة . . .

فسألته عن موقف الحزب إزاء الإنجليز ، إذا ما قدر له الفوز ، أتعمد الحكومة إلى فصم العروة الواهية التى ما برحت تربط البلد بعجلة الإمبراطورية ، وتعلن الجمهورية ؟

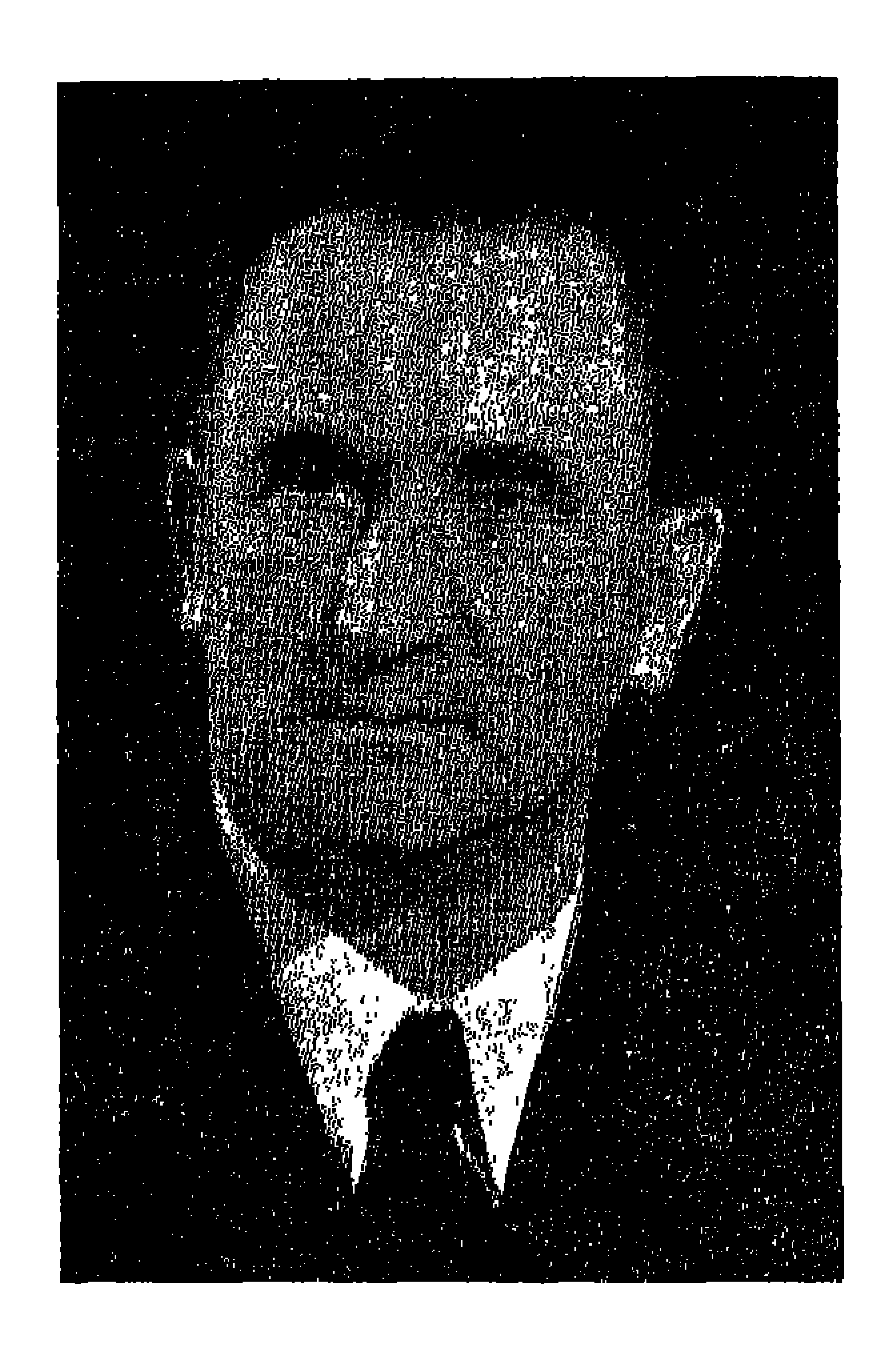
فأجاب : إن المعركة الانتخابية ستدور فى هذه المرة حول عدة مسائل ، منها مسألة الأجناس الملونة ، وبعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية . . .

ثم استطرد قائلا : والحزب الوطني ، كما تعلم ، جمهوري النزعة ، فعندما يحين الوقت المناسب لن يتردد فى تنظيم استفتاء عام يسأل فيه الشعب عن رأيه فى النظام الجمهورى ، فإذا انحازت الأغلبية لهذا الرأى وضع دستور الاتحاد على هذا الأساس ، ولن يضار الإنجليز بذلك ؛ لأن حكومتنا ستضع نصب عينيها أن تبقى العلاقات ودية بينها وبين حكومة لندن ، شأن سائر الحكومات الصديقة !

قلت : وهل أنتم على استعداد لتنفيذ أول ما تلتزم به الديموقراطية من المساواة فى الحقوق بين سائر رعايا الدولة ، وإلا فعلى أى أساس تعاملون الأهالى – أى الأجناس الملونة – وبعضها يعيش فى هذه البلاد قبل أن ينزح إليها البيض بعدة قرون ؟

فقال : إن جنوب أفريقيا يجب أن تظل ديموقراطية ( بيضاء ) فلا مساواة فى الحقوق السياسية بين الأوربيين والأجناس الأخرى ، ولن يعامل الزنجى معاملة الرجل الأبيض ، بل سيكون الملونون فى رعاية البيض وتحت وصايتهم ، إذا أرادوا البقاء فى البلد والعمل فيه ، وفيما عدا ذلك سينفرد السود بعدة بقاع من أراضى الاتحاد ، لا يكون للأوربى فيها حقوق سياسية ، وإنما يتولى الزنوج إدارة شئونها بأنفسهم ؛ والمبدأ الذى يدين به الحزب الوطنى يقوم على أساس الفصل بين حكومة البيض الذاتية ، وحكومة السود الذاتية ، ليعمل كل منهما فى المجال المحدد لها . . .

أما الشطر الثانى من السؤال فقائم على أساس فكرة خاطئة عن تاريخ



ستريدوم ، وزير الزراعة الآن

جنوب أفريقيا ؛ والحقيقة أن رجال الهوتنتوت والبوشمان الذين كانوا يستوطنون أراضي الاتحاد حينما نزح إليها المستعمرون البيض الأوائل ، لم يبق لهم وجود في الوقت الحاضر ؛ بل إنني أذهب إلى مدى أبعد فأقول إنهم ، حتى في ذلك العهد ، كانوا لا يستقرون في مكان ، بل يرحلون بدوابهم ومواشيهم إلى حيث يجدون المرعى الخصب ؛ وعلى ذلك لا يمكن اعتبارهم سكاناً أصليين بالمعنى المعروف !

أما قبائل البانتو فقد هبط أفرادها من قلب أفريقيا إلى الجنوب في الوقت الذى نزل فيه البيض على الساحل ، ثم اتجهوا شمالا إلى أن تقابلوا وجهاً لوجه ، فكانت حرب شعواء بين الفريقين كتب فيها الأوربيون بدماء ضحاياهم صفحة مجد خالدة في تاريخ جنوب أفريقيا ؛ وعلى الجملة كان الجانب الأكبر من أراضي الاتحاد الحالية وقتذاك ، خالياً من السكان عندما حلت به العناصر الأوربية . هذا إلى أن رحى القتال كانت لا تتوقف بين أفراد القبائل الزنجية ؛ حتى أنقذهم البيض من فناء محقق ، ولولاهم لخلت الأراضي من الأحياء ونعق البوم في ربوعها ؛ فالقول بأن البيض قد انتزعوا الأراضي من أيدى أصحابها الشرعيين الذين استوطنوها منذ عدة قرون ، إفك وبهتان لا يستند إلى أساس من الحقيقة !

قلت : وما رأى الحزب الوطني في القرار الذى اتخذته الأمم المتحدة بشأن مشكلة معاملة الهنود في جنوب أفريقيا ؟ هل تزمعون الانسحاب منها ؟

قال : إن دستور الأمم المتحدة لا يخول الهيئة حق التدخل في شئون

أعضائها الداخلية ، وليس لها أن تهيمن على شئون جنوب غرب أفريقيا ، لأن القانون الدولى لم يجعل منها وريثة لعصبة الأمم ، وأخوف ما تخافه أن تسترسل هيئة الأمم المتحدة فى غيها ، فتبذر بذور الفرقة بين أعضائها ، فتهدم نفسها بدلا من أن تعمل على توطيد أركان السلام بين مختلف الشعوب ؛ وعسى أن يرعوى أعضاؤها ويأبوا أن يكونوا أدوات طيعة فى أيدى الدول الكبرى التى لا هم لها إلا أن تفرض سياستها وأهدافها على أمم العالم كافة !

قلت : وهل تزمعون الإبقاء على قانون الحواجز الاجتماعية الذى يحول دون تقدم الملايين وازدهار حالهم ؟

قال : سيظل هذا القانون قائماً فى أراضى العنصر الأبيض ، حتى لا يضار فى مصالحه ، وحتى لا يعوق تقدمه عائق ، أما فى الأراضى المخصصة للعنصر الأسود فلن يطبق القانون المذكور . ولن يبقى الرجل الأبيض فيها ما دام وجوده غير مرغوب فيه ؛ وهناك يتسع المجال أمام العناصر الملونة ، فتسير قدماً فى طريق التقدم والازدهار والرفاهية ، وتتحقق أمانيها ؛ وفى هذه الحالة يتعين على كل مواطن من الملونين نال قسطاً من التعليم أن يكرس نفسه لخدمة بنى جنسه ، بدل أن يجأر بالشكوى طالباً المساواة السياسية فى المناطق المخصصة للأوربيين !

قلت : لا يخفى عليكم أن فرنسا قد اجتاحها العدو وحل بها الدمار ثلاث مرات فى خلال سبعين عاماً ، أفلا تعتقدون أنها على حق فى المطالبة بضمانات تكفل سلامتها من حرب رابعة ؟

قال : إن من مبادئ الاتحاد عدم التعرض لشئون غيرنا الداخلية

فهو لذلك يحرص على ألا يقحم نفسه فى صميم المشاكل الأوربية ، وإننا لنرجو أن يسود السلام ربوع العالم ، وأن تصفو القلوب وتتوطد الصداقة بين مختلف الشعوب ، لتعيش الأمم كافة فى وئام ؛ لذلك أرى أن الإجابة على هذا السؤال قد تسوقني إلى مواطن الزلل ، وتحملنى على الانتصار لأحد الطرفين فى نزاع لاشأن لنا فيه !

وحان موعد انتهاء الزيارة ، فأعربت لنائب الزعيم الوطنى عن شكرى لرحابة صدره ، وتزويدى بهذا القدر من المعلومات عن موقف حزبه إزاء مختلف المشاكل السياسية والاجتماعية . . .

* * *

هذا ما أثبته صحفى إنجليزى ، زار « اتحاد جنوب أفريقيا » ، واستمع إلى رأى سمطس وآراء خصومه ؛ وسمطس وخصومه هم كل أهل جنوب أفريقيا فى رأى المستعمرين البريطانيين والصحفيين البريطانيين أيضاً ؛ أما السود ، والملونون ، والنازحون الهنود والعرب ، وغير ذوى البشرة البيضاء من سكان تلك البلاد ، فليسوا فى نظر الإنجليزى إلا « شيئاً » موجوداً على أرض هذه البقعة من العالم ، كما توجد الدواب فى بعض مناطق الأرض ، أو كما توجد الهوام والحشرات ، أو كما يوجد الحجر الجامد الذى لا يحس ولا يعى ؛ فليس لهم صفة إنسانية ، فضلا عن أن تكون لهم صفة وطنية ، فضلا عن أن تكون لهم صفة أصحاب الأرض المغتصبة لنفع هؤلاء الدخلاء المستأثرين بكل ما فيها من خيرات ونعم . . .

وبهذه النظرة الأنانية يوصف سمطس وغير سمطس من أولئك الدخلاء المستغلين بأنهم أصحاب البلاد ، ويُغْفَل شأن أصحاب البلاد الحقيقين !



هافنيجا ، وزير المالية الآن وزعيم الحزب الوطنى فى الناتال

## معازل السود !

أشرنا من قبل إلى الحروب التى نشبت بين العناصر الأوربية الدخيلة ، التى نزحت لاستعمار أراضى جنوب أفريقيا ، أثر إنشاء محطة الكاب البحرية عام ١٦٥٢ ، وبين قبائل البانتو (١) .

وقد كانت حرباً غير متكافئة بين أسلحة مدمرة حديثة ، وبين سيوف ورماح بدائية ؛ ورغم ذلك لم يكن المنال سهلا ، بل ظلت الحرب سجالا بين الفريقين زهاء قرن ، إلى أن تحالفت المجاعة مع البيض ، فكان السود يسقطون صرعى من الوهن والهزال ، لا من الرصاص والقنابل !

ثم أذعنوا أخيراً لمشيئة الله ، ولم يخضعوا لقوة المستعمرة وبأسه ؛ فماذا فعل الرجل الأبيض بهم بعد ذلك ؟

لقد خصص لهم عدة مناطق ــ سميت فيما بعد بالمعازل ــ يقبعون وراء حدودها ولا يتخطونها ، شأنهم شأن المصابين بداء الجذام ، ولكنهم يعيشون فى هذه المناطق سادة أنفسهم ، أحراراً فى إدارة شئون مناطقهم ، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ؛ ولا يجوز للأوربيين شراء الأرض فى هذه المعازل أو حيازتها ، كما أن سكناها محرمة على البيض ، إلا إذا حصلوا على ترخيص بذلك .

---

( ١ ) يطلق اسم البانتو بصفة عامه على قبائل : الزولو ، والخوزا ، والبوندو ، والسوثو ، وغيرها .

وإنّا لنذكر عبارة وردت على لسان أستاذ فى جامعة فورت هار ، فى وصف هؤلاء المنبوذين ، إذ قال : « إنهم فى الحقيقة أحرار فى التضور جوعاً ! »

وهى حقيقة شهد بها شاهد منهم ؛ فإن نسبة الأراضى الصالحة للزراعة فى المناطق المخصصة للسود لاتتجاوز ١٣٪ من مساحتها ويتكدس فيها أربعة ملايين نسمة ، لا تكاد هذه الأراضى فى حالتها الراهنة ، تسد لهم رمقاً أو تدفع عنهم غائلة الجوع !

تلك حالة السود فى وطنهم ؛ فى حين يزعم البيض متبجحين أن الأراضى المخصصة للزنوج من أخصب مناطق الاتحاد ، وأن الأمطار فيها لا تكاد تنقطع على مدار السنة ، وإن عدم إستثمارها يرجع إلى التراخى والكسل !

وهذه فرية لا سند لها ، والدليل على ذلك أن محصول الأرض من الذرة فى معزل سيزكى بولاية الكاب ، لا يكاد يكفى لإطعام نصف سكانها ؛ يضاف إلى ذلك عدم توافر الأدوات الزراعية اللازمة لفلاحة الأرض ، كالمحاريث والفئوس ، وللنقص فى الأيدى العاملة ، لهجرة الشباب القادرين على العمل إلى المدن ؛ حيث تجتذبهم المصانع والمزارع الأوربية ، وتدفع لهم أجوراً مهما وصفت بالقلة فهى كبيرة بالنسبة لما يمكن أن تدره عليهم أرض المعزل المجدبة ، ونتيجة لذلك لم يبق فى تلك المنطقة الحرام سوى الشيوخ والنساء والأطفال .

وثمة معزل آخر للسود ، يقع إلى الشرق من ولاية الكاب ، ويمتاز بالخصب ووفرة الخامات ، إلا أن وسائل المواصلات فيه تكاد تكون

معدومة ، فليس فيه سوى خط حديدى واحد لا يزيد طوله على ٩٠ كيلو متراً ، كما أن طرقه موحلة لكثرة الأمطار وعدم عناية السلطة المركزية ، والمعادن فى قلب التربة لا تجد من يسعى إلى التنقيب عنها ، وتعترض أنهاره شلالات عدة ، ولكنها لا تستغل فى استنباط التيار الكهربائى ، وبالتبعية لا توجد مصانع تستوعب الأيدى العاملة السوداء .

أما معازل ولاية الأورانج فإنها أسوأ حالا من أمثالها فى الولايات الأخرى ؛ ذلك لأن طبيعة الأراضى فيها تكاد تكون صحراوية جرداء قاحلة ، يعز فيها النبات ولا تكفى حاصلاتها أكثر من عشر حاجات السكان .

وفى ولاية الزولولاند تعيش قبائل الزولو ، ويعتبر رجالها أنبل شعوب البانتو محتداً ، وأكثرهم كبرياء وترفعاً ؛ ومع ذلك فإن نسبة الأراضى المنزرعة فى ذلك المعزل المخصص لهم لا تتجاوز ١٤ ٪ ، أما بقية المساحة فتستخدم لرعى الأغنام ، على الرغم من قلة النباتات البرية فيها .

وقد يعترض على ما نسوقه من هذه البيانات ، بأن هناك اعتمادات مخصصة للعناية بمستعمرات الزنوج ، تصرف فى إصلاح الأراضى البور ؛ وتقديم الأسمدة للزراع السود بسعر التكلفة ، وتحسين نسل الماشية ، وتعبيد الطرق ، وشق الترع . . .

بيد أن هذه التدابير ، مع عدم كفايتها ، لم تتخذ إلا فى السنوات الأخيرة ، ولا يمكن أن تظهر نتائجها قبل جيل أو جيلين . . .

على أن الدولة ، حينما خصصت للسود هذه المعازل ، إنما كانت تهدف إلى توفير الأيدى العاملة السوداء للمصانع والمناجم والمزارع

الأوربية بأدنى الأجور ، وقد بلغت أهدافها فعلا ، وهذا أمر ظاهر فى كل مكان ، فقد تبين أن غاية ما يتمناه الشاب الزنجى هو الرحيل عن مسقط رأسه فى المعزل ، ليستطيع أن يعيش ، وهذا هو السبب الرئيسى فى تأخر المعازل الزنجية وسوء حالتها .

ويعتقد أن هذه المعازل التى أنشئت (لتفريخ) الأيدى العاملة السوداء ، لابد أن تصير عما قريب — إن لم تكن قد صارت فعلا — مباءات أمراض ومجاعات ثورات ، وعلة من علل التعاسة التى يعانيها السود ، ويخشى أن تنتقل عدواها إلى بقية البلاد الأفريقية الجنوبية . . .

* * *

وتنفرد قبائل البانتو بمساحات شاسعة من الأراضى فى المحميات التى تقع تحت إشراف الإنجليز مباشرة [1] ، والتى ما انفكت حكومة الاتحاد تطالب بضمها إلى أراضيها فلا تجد أذناً مصغية من لندن .

ويدير شئون كل محمية من المحميات الثلاث مندوب سام بريطانى ، له عدد من المرءوسين يتولى كل منهم إدارة منطقة من المحمية ، على غرار مديرى المديريات .

ونضرب مثلا بمحمية باسوتولاند ، التى تزيد رقعة أراضيها على مساحة بلجيكا ، ويبلغ عدد سكانها ستمائة ألف من الأهالى و ١٤٠٠ من البيض الأوربيين ، منهم الموظفون والمبشرون ، ومنهم من يشتغل بالتجارة ؛ وليس لأحدهم الحق فى تملك الأراضى ، كما أن المرعى مشاع بين

(١) محميات باسوتولاند ، وبتشوانالاند ، وسوازيلاند

الأهالى السود ، يتقاسمه زعماء العشائر الذين يتولون السلطات الإدارية والقضائية تحت إشراف الزعيم الأكبر ، يعاونه مجلس وطنى يضم ٩٥ عضواً من الزعماء الثانويين أو من ينوب عنهم — وهؤلاء يعينهم الزعيم الأكبر — وخمسة أعضاء تعينهم الإدارة البريطانية .

ولا يحسبن أحد أن هذا المجلس الوطنى يعتبر برلماناً بمعنى الكلمة ، وإنما هو هيئة استشارية بحت ، وأعضاؤها معينون من قبل الحاكم أو الزعيم الأكبر ، ولا يمثلون سوى أنفسهم ، مثله فى ذلك مثل مجلس اللوردات البريطانى ، له الهيمنة الأدبية دون أن يباشر السلطة التشريعية .

ويمكن القول إن أهالى باسوتولاند لا يعانون شظف العيش كما يعانيه أبناء جلدتهم الذين يعيشون أذلاء فى المعازل ، فالميزانية تكاد تكون متوازنة ، تعتمد إيراداتها على الضريبة المفروضة على الفرد — بواقع جنيه وخمسة شلنات سنوياً — وعلى العوائد الجمركية والضرائب غير المباشرة .

ويتولى القضاء مديرو الأقسام الإنجليز فى المحاكم البريطانية ، وزعماء القبائل أو مندوبوهم فى المحاكم الأهلية ، على حسب القانون والعرف .

ويوجد فى المحمية ثمانية مستشفيات ، وما يقرب من سمائة مدرسة ابتدائية وثانوية ، فضلا عن مدارس المعلمين والمعاهد الفنية التى يبلغ عددها أحد عشر معهداً ، أى ما يزيد على مجموع عدد المدارس فى أراضى الاتحاد بأسرها .

# جوهانسبرج . . . مدينة الذهب

وصف أحد السياح مدينة جوهانسبرج كما رآها ، فقال :

ذهبت لزيارة أحد رجال الأعمال بمدينة الذهب ، فلما دخلت عليه عليه فى مكتبه الفخم الأنيق، خلت أننى أزور مكتباً فى ( وول ستريت) ، حيّ المال والأعمال بمدينة نيويورك ، ثم دعانى للجلوس ، فكان أول ما لفت نظرى لوحتين معلقتين على الجدار ، إحداهما تمثل مدينة جوهانسبرج عام ١٨٨٦ ، أى قبل اكتشاف مناجم الذهب فيها ، والأخرى تمثل المدينة بعد نصف قرن .

وانطلق لسان صاحبى يعلق على اللوحتين فى زهو وخيلاء ، فقال : إن عدد السكان قد قفز خلال هذه الفترة من ٥٠ نسمة إلى خمسمائة ألف ، واليوم يعيش فيها ٣٨٠ ألف من الأوربيين ، إلى جانب ٦٠٠ ألف من غير الأوربيين ، وتبلغ مساحتها ٩٠ ميلا مربعاً . .

هذه هى المعجزة التى حدثت فى أقل من سبعين عاماً ، ويالها من معجزة ؛

لقد كان الرعاة البوير يسوقون أغنامهم فوق تلك الهضبة الشماء ، وعلى حين غرة ، عصفت الريح ، وكان اثنان من الإنجليز يتنزهان فى هذه البقعة النائية الصحراوية ، فأسرعا إلى شجرة يحتميان بها ، وإذا عين أحدهما تقع على حصاة صغيرة براقة صفراء اللون ، فتعقد الدهشة

لسانه ، وينتابه الهذيان وهو يحملق فيها ويقلبها فى يده ، إذ أيقن أنها تحتوى على تبر الذهب . . .

ولم يطق الصديقان صبراً ، بل راحا يعدوان نحو المدينة ، إلى أن بلغا حانة صغيرة ، فراحا يقصان على روادها تفصيل ما رأيا . . .

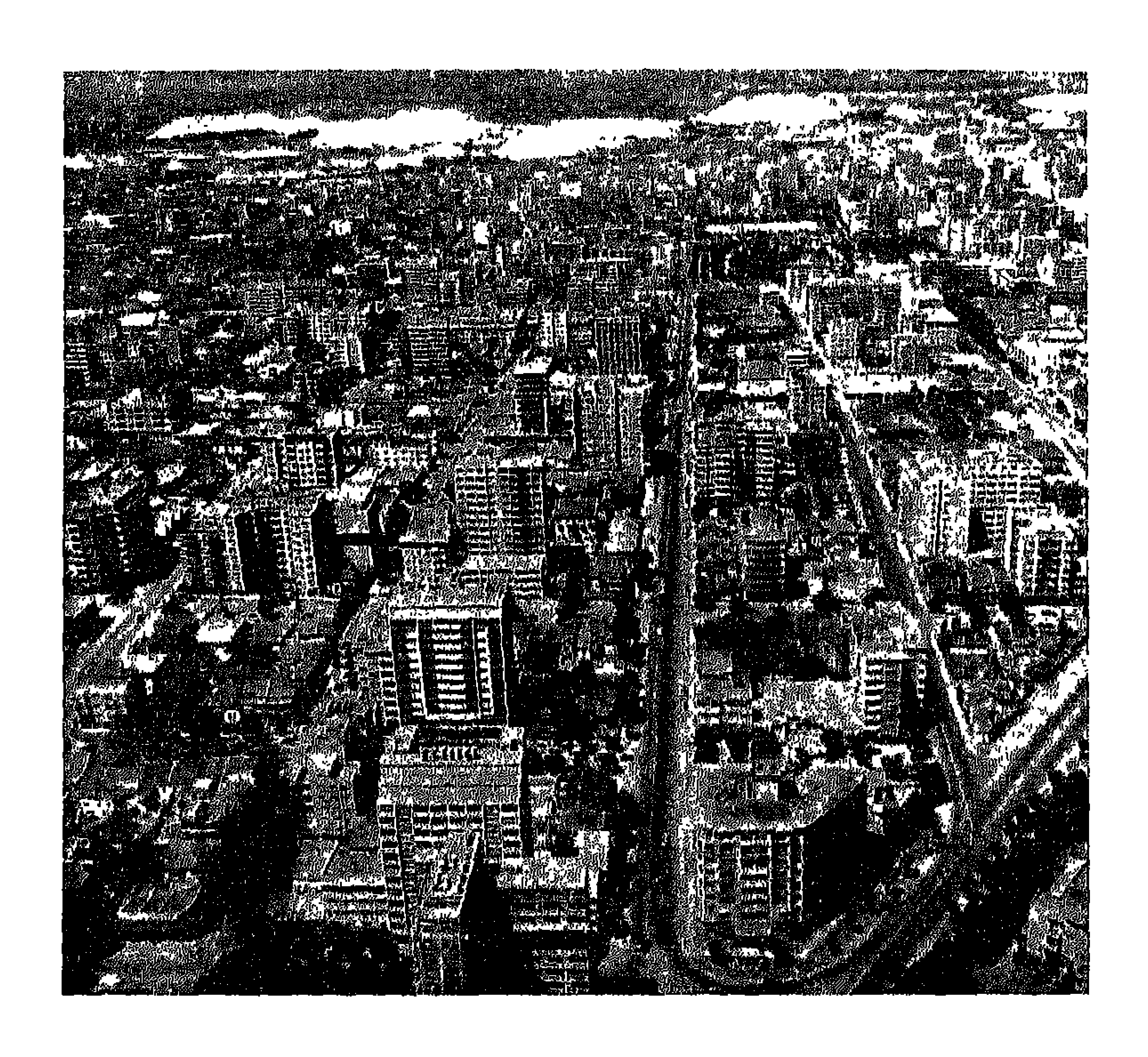
وما لبث الخبر أن شاع فى البلدة الصغيرة ، وتردد صداه فى البلدان المجاورة ، ثم انتقل إلى مدينة الكاب ، حيث طيرته أسلاك البرق إلى جميع أنحاء المعمورة ، فكان له دوى مثل انفجار القنبلة . . .

وأقبل الناس بعد ذلك من كل حدب وصوب نحو جنوب أفريقيا ، وحطت على أراضيها أفواج كأرجال الجراد ، فمنهم عمال المناجم ، ومنهم المغامرون ورجال المال والأعمال والتنقيب ، وطوائف من المغامرين والأفاقين ، ومن تحطمت آمالهم على صخرة الحياة ، ثم بعثت بعد هذا الإعلان . . .

وجلس الرجل الوقور ، كروجر ، يقلب صفحات الإنجيل ، ويدعو خالق السموات أن يجنب البلاد شر هذه الطغمة الفاسدة التى حلت بجنوب أفريقيا ، ولا وازع لها من دين أو من قانون . . .

ثم سرح ببصره فى سماء الخيال ، فإذا هو يرى الغد بكل مآسيه ؛ فهؤلاء « البوير » سحب مكفهرة تنعقد فوق بنى جلدته ، يبيعون مزارعهم ومواشيهم وبيوتهم بأبخس الأثمان ، ليرحلوا إلى تلك البقعة الملعونة ، فيضنيه الأسى ويؤرق جفنيه شبح الغد المجهول .

ثم يلقى خطاباً ينذر فيه بالهلاك أولئك الذين يبهر عيونهم بريق



صورة من الجو لمدينه جوها نسبرج

الذهب ، وينأى بهم عن الطريق السوي الذى سلكه أجدادهم من قبل فنعموا بالحياة المستقرة والثراء العريض ، ويستمطر لعنة السماء على رءوس المقامرين الذين يعلقون الآمال على مشروعات وهمية وعروض زائفة . . .

وعارض الرئيس طويلاً فى منح الأجانب حق التصويت ، حتى لا يساهموا بنصيب فى إدارة شئون البلاد . . .

وعارض فى مد الخطوط الحديدية إلى تلك البقعة الملعونة . . .

حض بنى وطنه على التمسك بتقاليدهم ونبذ الجديد . . .

ولكن ماذا تجدى المعارضة ؟

وما السبيل إلى مقاومة سلطان المال الذى سيطر على النفوس فملأها طمعاً وطموحاً ؟

هل تصمد الشجرة الضخمة فى وجه العاصفة الهوجاء ؟

وهذه الروح الاستعمارية الخبيثة التى تتقمص الطاغية سيسيل رودس ، وتجتاح كل عقبة تقف فى سبيلها ؛ وهل تستطيع مقاومتها قوة ؟

لقد جاهد كروجر جهاد المؤمن المستميت ، حتى خر صريعاً تحت أقدام العجل الذهبى ، وحلت الكارثة التى تخيلها قبل أن تكون !

الحرب والهزيمة ، وما أعقب ذلك من سقوط جمهوريات الفلاحين البوير ، ثم نهايته المحزنة فى منفاه ، وموته فى أوربا كسير الفؤاد . . .

* * *

وفى هذه الأثناء ، كانت المولودة الجديدة ( جوهانسبرج ) تنمو وتترعرع يوماً بعد يوم ، وكأنها ترعى عشب العمالقة الذى تحدث عنه

( ويلز ) فى أسفاره الخيالية ، فقامت العمائر والمبانى الضخمة مكان الأكواخ الحقيرة ، ونشأت المصارف وتدرجت فى الزيادة حتى أربت على المائة ، وظهرت دار البلدية تفاخر مثيلاتها فى العواصم الأوربية ، كما برزت ناطحات السماء ، ودور السينما ، والمسارح ، والملاهى . . .

وتسمع مواطناً من جوهانسبرج يتحدث عن المدينة ، فيصفها فى زهو بأنها أجمل مدن أفريقيا وأضخمها وأكثرها ثراء . . .

وقد نسلم بأنها أضخم المدن الأفريقية ، وأنها أكثرها ثراء أيضاً ؛ ولكنها ثروة أصابها نفر قليل من عرق الأهلين ودمائهم . . .

أما أنها أجمل المدن ، فالأذواق تختلف ؛ فقد تكون جميلة فى مرأى بعض العيون ، ولكنها فيما نرى ليست بذات جمال . . .

صورة مصغرة من نيويورك ، تتقاطع طرقاتها فى زوايا قائمة ، وتحف بها المحال التجارية عامرة بالبضائع الأمريكية ، وكلها متشابهة ، حتى ليتعذر على الزائر أن يميز بينها ، لأن بعض أسمائها مكتوب على الجدران عند المنعطفات ، وبعضها الآخر على الأرصفة ، وبعضها لا تجد له اسماً . . .

وتبحث عن الجمال والغنى فلا تكاد تجد لهما مظهرا ؛ لا تماثيل ولا نافورات ، ولا وجهات أثرية تخالف ذلك النظام الرتيب الذى يتعب عين الناظر ؛ فأين هذه المدينة من العواصم الأوربية التى تمتلىء العين فيها بروائع الفنون أينما نظرت !

على أن الشبه بين جوهانسبرج ونيويورك ، ليس كما يصف

الواصفون ، والفرق بينهما فى التناسق والضخامة كالفرق بين الثرى والثريا ! . . .

ولقد دعيت لتناول طعام العشاء فى مطعم بأعلى إحدى ناطحات السحاب ، وكان قد قيل لى إنه صورة مطابقة للمطعم الأمريكى الذى يقع فوق مبنى روكفلر بنيويورك ، وكنت قد ذهبت إليه من قبل واكتحلت عيناى بمرأى حى مانهاتان فى حلته الرائعة من الأنوار المتألقة ، وقد ارتمى فى أحضان المحيط الأطلسى ، وانعكست الأنوار على صفحة مائه فبدت كالكواكب تسبح فى السماء ؛ فأين ذلك المشهد الفريد الذى يأخذ باللب من منظر هذه التلال الموحشة المحيطة بجوهانسبرج ؟

وعلى الرغم من هذا التفاوت ، يقتضينا الإنصاف أن نذكر ما شاهدناه فى هذا المطعم الإفريقى ، ولا نظير له فى مختلف العواصم الأوربية والأمريكية . . .

لقد كان فى وسط المطعم مائدة مستديرة ضخمة ، عليها صحاف تحتوى على ألوان من المشهيات والفاكهة ، فى إطار من زهور يانعة ؛ وكانت المائدة دائمة الدوران ، والرواد جالسون حولها يلتقطون من صحاف الطعام ما يشتهون ، ولكنها على ما جمعت من ألوان الطعام والفاكهة والمشهيات ، كانت فى شعورى الباطن كما يقول المغنى الأفريقى :

« زهور بلا أريج ،
وفاكهة بلا نكهة .
ونساء بلا قلوب . . . »

* * *

ومع هذا ، فلا يظن القارئ أن جوهانسبرج قد خلت من البهجة والجمال ، بل إنها لتزهو بشبابها الأخاذ ، وتتدفق الحيوية فى شرايينها ، ولا شك أن الإنسان ينعم فيها بالعيش الرغيد ، إذا توفر له المال ؛ فالطقس فيها معتدل ، والسماء صافية الأديم ، والشمس ساطعة ، والهواء عليل ، فهى واقعة على ارتفاع ألفى متر عن سطح البحر ، ويكاد مناخها يشبه مناخ الشاطئ الفرنسى اللازوردى .

وقد يشتد فيها عصف الرياح أحياناً ، ولكنها لا تلبث أن تهدأ ثائرتها وتخف حدتها ، ويعود إلى السماء صفاؤها . . .

ومن مزاياها التى لا يستهان بها ، وسائل المواصلات المتعددة ؛ فهذه قطارات الترام لا ينقطع عجيجها ، تحملك إلى أطراف المدينة ، فتنساب وتتلوى فى أحيائها القديمة التى لم يمتد إليها العمران بعد ، وهذه الأوتوبيسات الضخمة ، تكاد فى مسيرها تحتك بالسيارات الفخمة التى تقف على جوانب الشوارع فى قلب المدينة ، حيث المصارف والبيوتات التجارية ومكاتب المحامين والأطباء ورجال المال والأعمال .

ويستفاد من الإحصائيات الأخيرة أن لكل ستة من أفريقيا الجنوبية سيارة ، مما يدل على الرخاء والثراء العريض . . .

فإذا ما دقت الساعة الخامسة ، هدأت الحركة ، وتوقفت خلية النحل عن نشاطها فى قلب المدينة ، وأخذت السيارات طريقها نحو التلال ، حيث القصور الشامخة ، والفيلات الأنيقة التى تحيط بها الحدائق الغناء ويعيش فيها أصحاب الملايين . . .

وتعود الحركة سيرتها الأولى فى التاسعة مساء ، فتجد السيارات الفخمة فى صف طويل أمام دور السينما ، التى تعتبر المسلاة الثقافية الوحيدة فى جوهانسبرج ، والتى تطغى الأفلام الأمريكية فيها على الإنجليزية ، فلا يعرض منها سنوياً أكثر من عدد أصابع اليدين .

والغريب أن مدينة جوهانسبرج ، على عظمتها ورخائها ، ليس فيها مسارح بالمعنى المألوف ، وليس فيها دار للأوبرا ، وأدهى من ذلك وأمر أننى لم أعثر على ( صالة ) واحدة تعزف فيها الموسيقى الكلاسيكية ؛ ولما استفسرت عن علة هذا الإهمال الشائن ، قيل لى « لا تنس أن المدينة لم تبلغ بعد سن الرشد فى الثقافة والفكر !

فإذا ما انتصف الليل ، أقفرت الملاهى من روادها ، إلا بعض ( اللعلب الليلية ) ، والطفأت الأنوار ، واكتست المدينة حلة سوداء من الوحشة والكآبة ، فلا ترى فى طرقاتها الرئيسية سوى أشباح رجال البوليس الزنوج ، الذين يقومون بحراسة المصارف والشركات المالية الكبيرة التى تتعرض للسطو فى كثير من الأحيان !

# تجارة الرقيق
# فى أفريقيا الجنوبية !

وإذا كانت جوهانسبرج قد تمت بهذه السرعة ، واستقر فيها نحو ثلاثمائة ألف من البيض ينعمون برغد العيش، إلى جانب عشرة آلاف – من البيض أيضاً – يعيشون فى رفاهية يحسدهم عليها الملوك ، فلأن هناك عدداً كبيراً من السود يكدون ويكدحون تحت ثراها ، دون أن يراودهم أمل ، أو يقطع حبل حياتهم الرتيبة مرح . . .

هؤلاء هم الذين ينتزعون التبر من عروق الصخر . . .

وهم الذين يزودون العالم بثلث إنتاج الذهب . . .

وهم الذين تتفصد عروقهم وتسيل دماؤهم ، ليشيد البيض أبراجهم العالية وقصورهم التى تسمو بفخامتها على قصور أصحاب الملايين الأمريكيين . . .

وهم الذين يكدون ويكدحون ليملئوا جيوب السادة حملة الأسهم ، وجلهم من الإنجليز . . .

وهم الذين لهم الفضل فى موازنة ميزانية الاتحاد ، الذى تعتمد اقتصادياته على الضرائب الضخمة التى تجنى من أصحاب المناجم . . .

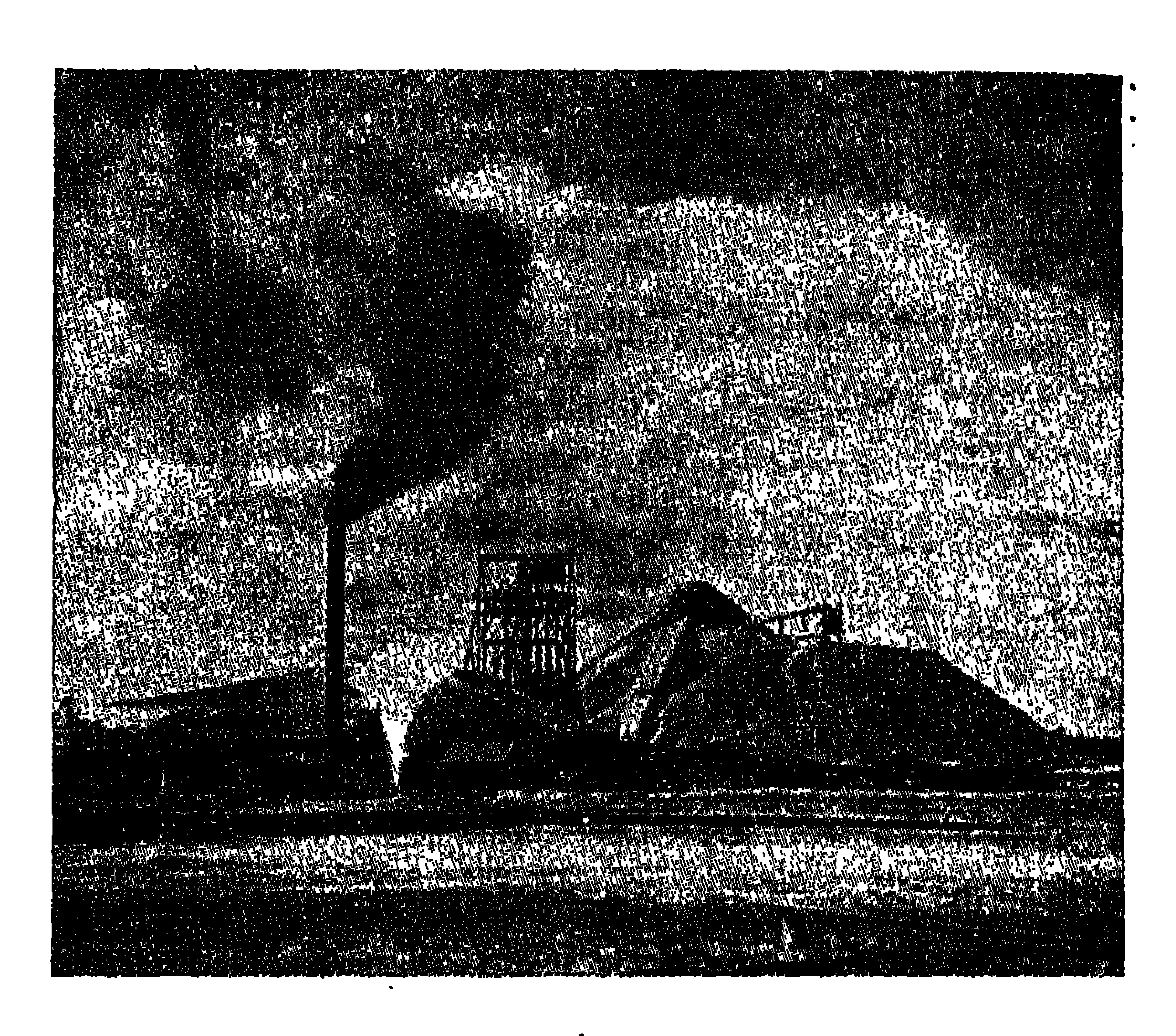
وهم الذين يزودون الإمبراطورية البريطانية العجوز بأكسير القوة والحياة ، فتقاوم عوادى الدهر وعوامل الشيخوخة التى تدب فى أوصالها الواهنة . . .

وقد قصدت إليهم فى مثواهم تحت الأرض ، بمنجم روبنسون ديب ، فخلت أنى قد انتقلت إلى برج بابل فى باطن الجحيم ؛ فقد هبط بينا المصعد الحديدى المظلم إلى قاع المنجم ، وكانت سرعته مخيفة تكاد تختنق منها الأنفاس ، فحمدنا الله على سلامة الوصول بعد أن مضت دقيقة خلناها دهراً طويلا ؛ وهناك رأينا ممرات عريضة قد نحتت فى الصخور ، تعج بمن فيها من الزنوج ( البانتو ) ؛ فهنا فريق يضرب الصخر بالمعاول فيتفتت تحت ثقل ضرباته ، وهناك جماعة انتحت جانباً فى انتظار نوبتها فى العمل ، والجميع أنصاف عراة ، يسيل العرق على أجسادهم فيبرز عضلاتهم الضخمة . . .

وقد استفسرت عن سر تشغيل السود دون المولدين والهنود ، فقيل لى إن هؤلاء يهجرون قراهم ومعازلهم سعياً وراء الرزق ، ويقبلون العمل فى المناجم رغم الأجور الضئيلة التى لا تكاد تسد الرمق ، حتى لا يموتوا جوعاً ؛ أما المولدون والهنود فيعتبرون العمل فى المناجم من الأعمال الدنيا التى يأنفون من القيام بها . . .

وفى تلك الممرات السفلى ، تجرى العربات الحديدية على القضبان ، حاملة فتات الصخور ، فتحدث دوياً يصم الآذان ، وعند كل تقاطع رجل يتولى عملية تحويل العربات المحملة والفارغة ؛ ويصادفك بين مسافة وأخرى أبواب تقع فى نهاية فتحات أسطوانية منحوتة فى الصخر ، وتمتد من قاع المنجم إلى سطح الأرض ، لتهويته وإنارة بعض أجزائه الرئيسية ...

وها هو ذا أقرب العروق التى تتخلل الصخر ، تنقض عليه ضربات



أحد مناجم الذهب فى جوهانسبرج

المعاول المنتظمة ، فتحدث ضجة هائلة ؛ ويقوم فريق آخر من العمال بتشغيل الآلات الكهربائية لقطع هذه الصخور ، وفريق آخر يرفعها فوق العربات ، فإذا ما تم شحنها دفعتها السواعد القوية إلى حيث تتم عملية التفريغ . . .

كل هذا يجرى على وتيرة منتظمة ، فى جو خانق من الحرارة ورائحة العرق الكريهة ، يزيده رهبة ذلك النور الأحمر الضئيل الذى يشع من أعلى السراديب الأرضية ، فينساب على وجوه قاتمة تقلصت عضلاتها وارتسمت على قسماتها آيات الإرهاق الشديد والجهد المضنى !

والعمل على سطح الأرض ، فوق المنجم ، أقل قسوة من العمل فى باطنه ، ولكنه دائم لا ينقطع ، وتتولاه ثلاث فرق من السود ، يعمل رجال كل منها ثمانى ساعات متوالية ، فهذا فريق يحطم الصخور الضخمة ، وفريق ثان يحيلها إلى قطع صغيرة ، ثم فريق ثالث يفتتها ويسحقها فتستحيل إلى تراب ، تضاف إليه كمية محدودة من الماء ، ثم تجرى عملية الترشيح ؛ وأخيراً يرسب فى قاع الوعاء سائل يميل لونه إلى الصفرة . . .

أما عملية تجفيف هذا السائل وتحويله إلى سبائك ذهبية ، فتجرى فى الخفاء وتعتبر من الأسرار المكنونة !

وقد علمت من مهندس المنجم الذى كان يرافقنى ، أن هذا المنجم عمره نيف وأربعون عاماً ، وقد تضاءلت كمية الذهب التى تستخرج من عروقه لدرجة أنه لابد من تفتيت خمسمائة طن من الصخر للحصول على أوقية واحدة من الذهب !

أجل ، أوقية واحدة ، أى ما يساوى ثلاثين جراماً ، من أجلها يشقى هذا العدد الكبير من السود ، وتذوى تلك الزهور اليانعة من الجنس البشرى وتحرم من طيبات الدنيا ونعيمها الذى يعيش فيه الجنس الأبيض !!

* * *

وذهبت بعد ذلك لزيارة ما يسمونه ( بالمأوى ) على مقربة من المنجم حيث يعيش العمال السود فى عنابر يحشرون بالمئات فى كل منها ويتناولون طعامهم ، لا فرق بينهم وبين الحيوانات ؛ ولا يكاد يختفى قرص الشمس حتى تغلق الأبواب ويحجز خلفها هؤلاء المساكين الذين كتبت عليهم الذلة إلى أبد الآبدين !

وقصدت إلى الدار المخصصة لسكنى قائد المعسكر — وهكذا يسمونه — فرحب بى وأكرم وفادتى ؛ وكان شيخاً فى الستين ، عاش طويلا فى معازل السود ، ولمس شقاءهم عن كثب ، فأغدق عليهم حبه وآثرهم برحمته ، حتى أطلقوا عليه لقب « الأب الرحيم العادل » !

وشاهدت من النافذة جماعة من السود يلتفون حول نار موقدة ، يطهون عليها طعاماً لم أتبينه ، ثم يتطلعون من حين لآخر إلى النافذة المطلة على الفناء الداخلى ، حيث كنا ، وتفتر ثغورهم عن ابتسامة تنم عن سذاجة وطيبة فطرية . . .

وأخذ ( القائد ) يحدثنى عن حالة أبنائه ، فقال إنه يجمع بين أبناء كل قبيلة على حدة ، لاختلاف اللهجات ، ولتلافى اشتعال الأحقاد التى نشأت وتأصلت فى النفوس منذ قرون ، حينما كانت الغارات والمذابح

تتوالى وتقضي على آلاف الأرواح من رجال القبائل المعادية . . .

ثم ذكر لى أن رواسب هذه الكراهية ما زالت مستقرة فى أعماق النفوس والدليل على ذلك أن القتال ينشب أحياناً بين فريقين ينتمى كل منهما إلى قبيلة معادية ، لغير سبب ظاهر !

وقال إن لكل عنبر رئيساً يختاره السكان ويتحدث بلسانهم ويرفع شكاواهم ، وهو الذى يتولى فض الخلافات فيما بينهم ويقترح الجزاء الذى يوقع على المذنب منهم ، وقد جرت العادة على ألا ينقض قراره .

وحل موعد الغداء ، فدق الجرس ، وشاهدت الزنوج يهرعون إلى المطبخ من كل جانب ، حاملين أوانيهم وأكوابهم ، فيقفون فى صفوف منتظمة ، ويقف الطهاة وراء الحواجز ، يقدمون لكل واحد منهم نصيبه من الطعام والشراب ، ولكل منهم أن يطلب ما يشتهيه من الحساء المصنوع من دقيق الذرة ، أو لحم الضأن بالبطاطس ، أو قطع الكرشة الغارقة فى المرق ؛ أما الشراب فلكل واحد أن يختار بين الشاى أو القهوة ، ولكل فرد فى المعسكر حق الحصول على لترين من الجعة المصنوعة محلياً كل أسبوع .

وقد تذوقت الطعام فألفيته — والحق يقال — شهياً ؛ وكان الخبز ناصع البياض ، يحسدهم عليه أكثر الأوربيين الذين عانوا الحرمان مدة طويلة خلال الحرب العالمية الأخيرة .

ولكننا نتساءل : هل يقدّم هذا الطعام الشهى إلى هذا القطيع من الأنعام بدافع الرحمة ، أم لإقامة أودهم حتى لا يقعدوا عن عملهم الشاق ؟

ولا يخلو المعسكر من أسباب التسلية ، ويقول المدير إنه يقوم بتنظيم

مباريات كرة القدم والكريكت والتنس بين الفرق المختلفة فى المعسكر ، كما ينظم أحياناً مباريات الملاكمة التى برع فيها هؤلاء السود على غرار بنى جلدتهم فى أمريكا .

وفى أيام الحفلات تقام لهم حفلات راقصة ، فيرتدى كل فريق من الرجال زى القبيلة ، ويرقصون رقصة الحرب على دقات الطبول .

أما فى المساء فيأتيهم معلم من خريجى جامعة لوفديل ، لتلقينهم مبادئ القراءة والكتابة ، ويقبل البعض على دروس الإنجليزية فى نهم وشغف عجيب ، وكأن عملهم المضنى خلال النهار لم ينل من قواهم الجثمانية بما فيه الكفاية حتى يضاف إليه هذا الإرهاق الذهنى !

كل هذا جميل ، وأجمل منه تلك الروح الكريمة الرحيمة التى تبدو فى معاملة ( الأب الرحيم العادل ) .

ولكن ، هل تنسينا تلك النعومة النسبية ، الأجور الضئيلة التى يتقاضاها الزنوج ؟

ألا يحن هؤلاء التعساء فى المنفى إلى ذويهم وزوجاتهم وأولادهم ومساقط رءوسهم ؟

وهذا الحرمان من الحرية ، ألا يدمى الأفئدة ويثير كوامن النفوس ؟

لقد قيل ، تبريراً لهذا السجن ، إنه ضرورة لا مناص منها للحيلولة دون سرقة الذهب !

وهذا فى رأيى عذر سخيف وقول غير مقبول .

وإذا كان لا بد من الاحتياط والتحفظ ، فلماذا لا يستبدل به

تفتيش العمال عند دخولهم المنجم أو خروجهم منه ؟

والحقيقة أن هذه المعاملة نوع مقصود من الإذلال ؛ إن هؤلاء العمال يعيشون ويعملون مسخرين كما كان يسخر المصريون القدماء فى بناء الأهرام ، والفرنسيون من بعدهم فى تشييد قصر فرساى . . .

أما هذه المعسكرات فسمها إن شئت سجوناً نموذجية ، ولن تبعد عن الواقع قيد أنملة.

* * *

ولربما يتساءل الإنسان : كيف أتى هؤلاء الزنوج إلى جوهانسبرج ؟ وما هى الظروف التى تحيط بعملية تجنيدهم ؟

لقد تبين لى من تحرياتى الدقيقة ، أن فئة قليلة من هؤلاء العمال تتقدم مختارة إلى مكاتب التشغيل فى المدينة ، أما الغالبية فتقع فريسة فى أيدى (المقدّمين) الذين يقومون بعمليات التجنيد بالجملة ، إما فى المعازل أو أراضى المحميات الإنجليزية الثلاث ، التى تعتبر معيناً لا ينضب من الزنوج العراة الذين لا يجدون ما يسد الرمق ، ويقتاتون بالأعشاب البرية التى تنمو على سفوح الجبال أو فى قلب الصحارى ؛ وهؤلاء ، لضيق ذات اليد ونفاذ الحيلة ، يقنعون بأضيق الرزق إذا أتاهم ، فلا يترددون فى قبول أى عمل ، مهما كان شاقاً ، ومهما تضاءل أجره ، فما ظنك بأطفالهم الذين يعيشون

هؤلاء الصبية هم الذين ينقض عليهم (المقدّمون) ويسوقونهم إلى المكاتب بعد انتزاع إقرارات من آبائهم بالقبول كرهاً ؛ والغريب أن

الحكومة تعترف بطائفة المقدّمين — أو النخاسين كما ينبغى أن يسموا — وهم يتقاضون عمولة رسمية من الحكومة قدرها جنيهان عن كل رأس يقدّمونه !

ولا تترك هذه الفئة باباً إلا طرقته ، فتراها تارة تقرض رب العائلة بعض المال ، حتى إذا عجز عن وفاء الدين ، تقاضوا حقهم غلماناً يتناسب عددهم مع قيمة الدين ؛ وتراها تارة أخرى ترسم لأرباب الأسر الكبيرة صورة براقة للحياة التى تنتظر أبناءهم فى « جنة » جوهانسبرج ، وتغريهم بالأموال التى ستتدفق فى جيوبهم ، فيغترون بهذه الصورة الزائفة وينزلون عن فلذات أكبادهم !

وبطبيعة الحال لا يختار المقدّمون إلا ذوى البنية السليمة والأجسام الفتية القوية ، ثم يوقع كل « مجلوب » ، أو بالأحرى يضع بصمته على العقد الذى يرتبط بموجبه بالعمل مدة تتراوح بين سنة وسنتين ، وحينئذ يصبح الزنجى رقيقاً رهن مشيئة المقدم ، يوجهه حيثما أراد ؛ فإما أن يبعث به إلى مدينة جوهانسبرج أو إلى مدينة أخرى غيرها بمنطقة مناجم الذهب ؛ ومنذ تلك اللحظة يفقد الزنوج حرياتهم فلا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً ؛ فإذا فر أحدهم — ومتوسط عدد الفارين يبلغ نحو ستة آلاف سنوياً — كان جزاؤه الغرامة أو السجن . .

فإذا انتهت مدة الخدمة وعاد إلى الهزيع ثم اراد التوقيع على عقد جديد ، منح مكافأة عن مدة عمله الأولى ، على شرط أن تكون مدة التطوع الجديدة مساوية للمدة السابقة ، وأن تسمح حالته الصحية بالعمل

الإضافى ؛ وهذا ما يحدث إلا فى الأحوال النادرة ؛ لأن طبيعة العمل فى المناجم قاسية لا ترحم ، فتصاب الغالبية العظمى من هؤلاء العمال بمرض ( السليكوز ) الناشىء عن تراب الصخور الذى ينفذ إلى شعب الرئتين ، ويستقر فيها بصفة مزمنة إلى أن يتضاعف فيتحول إلى سل رئوى ؛ وهذا ما يدعو إلى إنشاء مصحات لعلاج هذا المرض الخطير فى المعسكرات التابعة للمناجم ؛ والمعروف أن الزنوج الذين ألفوا الحياة فى الهواء الطلق ، أكثر تعرضاً لهذا المرض من الأوربيين البيض الذين يعيشون فى المدن ؛ وقد لاحظت أن نسبة الوفيات فى المصحات المذكورة ضئيلة نسبياً ، ولما سألت عن السبب ، وهل هذا راجع إلى العناية الفائقة بالمصدورين ، قيل لى إن السر فى ذلك راجع إلى أنه كلما استعصى المرض وضعف الأمل فى شفائه ، أو أشرف المصاب على الموت ، بادر أولو الأمر إلى ترحيله إلى قريته ليموت فيها ، ولذلك لا يسجل من الوفيات إلا عدد قليل !

ولما كان الكشف الطبى هو أول إجراء يتخذ عند تشغيل العمال ، فإن من غير الممكن أن يعود المرضى القدامى إلى صفوف العمال من جديد ولا عجب ، فإن القائمين على شئون مناجم الذهب كوحوش الغابة تعاف الميتة ولا تقبل إلا على الأجسام الغضة النابضة بالحياة !

وليس ثمة قوانين عمالية تكفل للسود حقوقهم ، فلا مكافآت للمرضى ولا تعويض لإصابات العمل ، ولا إعانة للشيخوخة !

ومع هذا الإهدار الصارخ لحقوق العمال الزنوج ، فإن متوسط الأجر اليومى يبلغ شلنين ، أى ما يساوى ثلاثة جنيهات شهرياً ، وهو عشر ما

يتقاضاه العامل الأوربى العادى ، ويبلغ فى السنة ٣٤٥ جنيهاً ، فى حين يتقاضى العمال المخصصون من الأوربيين أجوراً تتراوح بين ستة أضعاف أو عشرة أضعاف هذا المبلغ . . .

وقد بدأ الوعى العمالى ينضج عند الزنوج ، بعد أن شعروا بمدى استغلال البيض لهم طوال هذه السنين ؛ فتأسست النقابات ، وارتفعت الأصوات بالشكوى الصارخة ، إلى أن اعترفت حكومة الاتحاد بنقاباتهم عام ١٩٣٩ ، ثم عادت فسحبت هذا الاعتراف ، على أثر المعارضة الشديدة التى بدت من جانب نقابات الأوربيين والعناصر « الوطنية » المتطرفة بمجلس النواب .

وظلت نقابة العمال السود قائمة بصفة غير رسمية ، تواصل المساعى لنيل الحقوق المهضومة ، إلى أن قدمت إلى الحكومة طلباً بأن يكون الحد الأدنى لأجر الزنجى عشرة شلنات يومياً ؛ ولكن الحكومة أصمت أذنيها ورفضت مجرد النظر فى هذا الطلب ، فما كان من النقابة إلا أن أعلنت الإضراب العام فى أغسطس ١٩٤٦ ، فلم يرق هذا الإجراء فى نظر الحكومة ، وعمدت إلى أشد وسائل القمع ، فطارد البوليس العمال الزنوج وحصرهم فى المعسكرات وفى أعماق المناجم ، حيث أطلق عليهم النار ؛ فأسفرت هذه المعركة غير المتكافئة عن مقتل ٥٠ زنجياً ، وجرح عدة مئات منهم ، كما زجت السلطات بعدد كبير منهم فى السجن ؛ ثم اعتقلت الحكومة ثمانية من أعضاء الحزب الشيوعى ، بتهمة إثارة القلاقل والتآمر على سلامة الدولة ، لأنهم شرعوا أقلامهم فى الصحف انتصاراً لقضية الزنوج

وحثًا على إجابة مطالبهم العادلة !

وقد كان هذا العسف من جانب الحكومة ، باعثاً على ازدياد النفوذ الشيوعي بين العناصر الأفريقية ، وسبباً لعطف ذوى النزعات الحرة ، حتى من الأوربيين أنفسهم . . .

آلهة الذهب يتحكمون !

وبعد ثلاثة شهور من هذا اليوم المشئوم فى تاريخ كفاح السود من أجل تحسين حالتهم ، وجهت غرفة المناجم إلى أعضائها دعوة لعقد اجتماع ، قيل فيه إنه سيكون على جانب عظيم من الأهمية ؛ فشهده عدد كبير من أصحاب المناجم ورجال الصناعة وألمع الأسماء فى سماء المال بجنوب أفريقيا ، ممن يمتلكون ثروة تقدر بعدة مليارات من الجنيهات .

واستهل الاجتماع كارلتون جونز ، رئيس الغرفة ، فأعلن فى صوت تتخلل الحسرة نبراته ، أن هذا الاجتماع قد تقرر لإبلاغهم مدى ما تشعر به لجنة منتجى الذهب من قلق إزاء مركز هذه الصناعة فى الحاضر والمستقبل . . .

ثم عرض الرئيس لأسباب القلق الذى يساوره ، فقال : إن سعر الذهب قد حدد عالميا منذ ١٩٣٢ ، وما زال باقياً على حاله ، فى حين اطردت زيادة تكاليف الاستغلال ، فأصبحت اليوم تتجاوز ضعف ما كانت عليه فى ذلك التاريخ ؛ وقد اضطرب مركز بعض المناجم المالى

لدرجة أنها قررت إغلاق أبوابها ، هذا إلى أن عشرة منها على شفا الإفلاس . . .

ثم استأنف قائلا : وفى هذه الظروف الحرجة تطالب نقابة العمال السود برفع الأجور من شلنين يومياً إلى عشرة شلنات ، ولا يخفى أن إجابة هذا الطلب تعد ضرباً من المستحيل ، لأن عاقبته لن تؤدى إلى خراب المناجم فحسب بل ستقضى على عدة صناعات ثانوية ، ويضطر أغلب المناجم إلى التوقف عن العمل ، وتتعطل تبعاً لذلك غالبية الأيدى العاملة ؛ هذا إلى أن الدولة ستعانى آثار هذه النتيجة ، لأن ثلثى الإيرادات يجبى من الضرائب الباهظة المفروضة على مناجم الذهب ، فإذا ما نضب هذا المورد ، كفت عن صرف الإعانة المخصصة لإنعاش الصناعات والنهوض بالزراعة ، وتوقفت معظم المشروعات الحكومية ، وينهار تبعاً لذلك صرح الاقتصاد وتحل الكارثة بالبلاد . والخلاصة أنه من المستحيل إجابة طلب النقابة ، بل مجرد التفكير فى رفع الأجور !

وقد نزل هذا الخطاب برداً وسلاماً على أعضاء الغرفة الرأسمالية ، فصفقوا لهذا القرار الحكيم ، وبذلك أضافوا حلقة جديدة إلى الأغلال التى يرسف فيها العبيد ، وجريمة أخرى من كأس المذلة والشقاء التى يسقونهم بها .

وكانت موافقة إجماعية ، انفض بعدها الاجتماع ، واستقل السادة أصحاب الملايين سياراتهم الفاخرة ، عائدين إلى قصورهم المشيدة فوق تلال جوهانسبرج !

وجدير بالملاحظة أنه لم يرد فى خطاب رئيس الغرفة أية إشارة إلى المناجم التى اكتشفت أخيراً فى ولاية الأورانج ، والتى كانت تبشر بإنتاج ضخم ، وتبشر المساهمين فيها بالثراء العريض ؛ ولو كان الخطر ماثلا ، ونذر الإفلاس بادية فى الأفق ، كما ذكر الرئيس فى خطابه ، فلماذا لم يقترح على الأعضاء تخفيض نسبة الأرباح التى توزع على المساهمين ؟ ولماذا لم يتجه التفكير إلى توفير عدد من كبار الموظفين الأوربيين ؟ ولماذا لم يوضع مشروع تسوية تؤدى إلى تفريج كربة العمال السود ، وتنصف ذوى الأجور الضئيلة من أثرة ذوى الأجور العالية ، فتتحقق بذلك العدالة الإجتماعية ؟

وإلى متى ينوء هؤلاء العبيد بحملهم ، وتطحن رحى السخرة أجسادهم؟

ليت أولئك السادة يعرفون أن عبيدهم لا بد أن يشعروا يوماً ما بكيانهم ومدى قوتهم ، فيحطموا هذه الأغلال ؛ وعندئذ يفلت الزمام ، وينطلق العملاق من قمقمه فلا يستطاع رده ! . . .

## مدينة المنبوذين !

ويعيش حول مدينة جوهانسبرج ، عدا الزنوج الذين يكدحون فى باطن الأرض ، فريق آخر من السود ، يبلغ عددهم أربعمائة ألف نسمة ، يعيشون ــ مجازاً ــ فى نطاق الدائرة المحيطة بالتلال ؛ فى أكواخ حقيرة تأنف الحيوانات من سكناها ، ويعاف الإنسان مجرد النظر إليها ، تحشر

فيها الأجسام البشرية ، فلا فاصل بين مرقد الأبوين والأبناء ، ولا حاجز يستر العرى عن الأنظار . . .

وقد سألت رفيقى عن هؤلاء السكان ، فقال إنهم هجروا مساقط رءوسهم فراراً من الجوع ، ونزحوا إلى هذا المكان فاستوطنوه لقربه من المدينة ، وهم يقنعون بالأعمال الدنيا ، فمنهم الكناسون ، وعمال البناء ، ومنهم من أسعدهم الحظ فالتحقوا بخدمة الفنادق والبيوت .

ويتراوح أجر الواحد منهم شهرياً بين أربعة جنيهات وستة ، وهى أجور قلما تكفى لإطعام أفراد الأسرة ، فضلا عن الأقارب الذين يستضيفونهم حتى تتاح لهم فرصة العمل !

واستطرد صاحبى يقول : إن حالة هؤلاء السكان تدعو للرثاء أثناء فصل الشتاء ، حينما تهطل الأمطار الغزيرة فتنفذ خلال السقوف المتداعية إلى داخل الأكواخ .

وشهدت الزنجيات يجلسن القرفصاء حول نار موقدة ، عليها قدر بها حساء الفقراء التقليدى ، قد استقرت فى أسفله حبات الذرة ، ومن بينهن كثيرات ترضع إحداهن طفلا ويتعلق الآخر بظهرها . . .

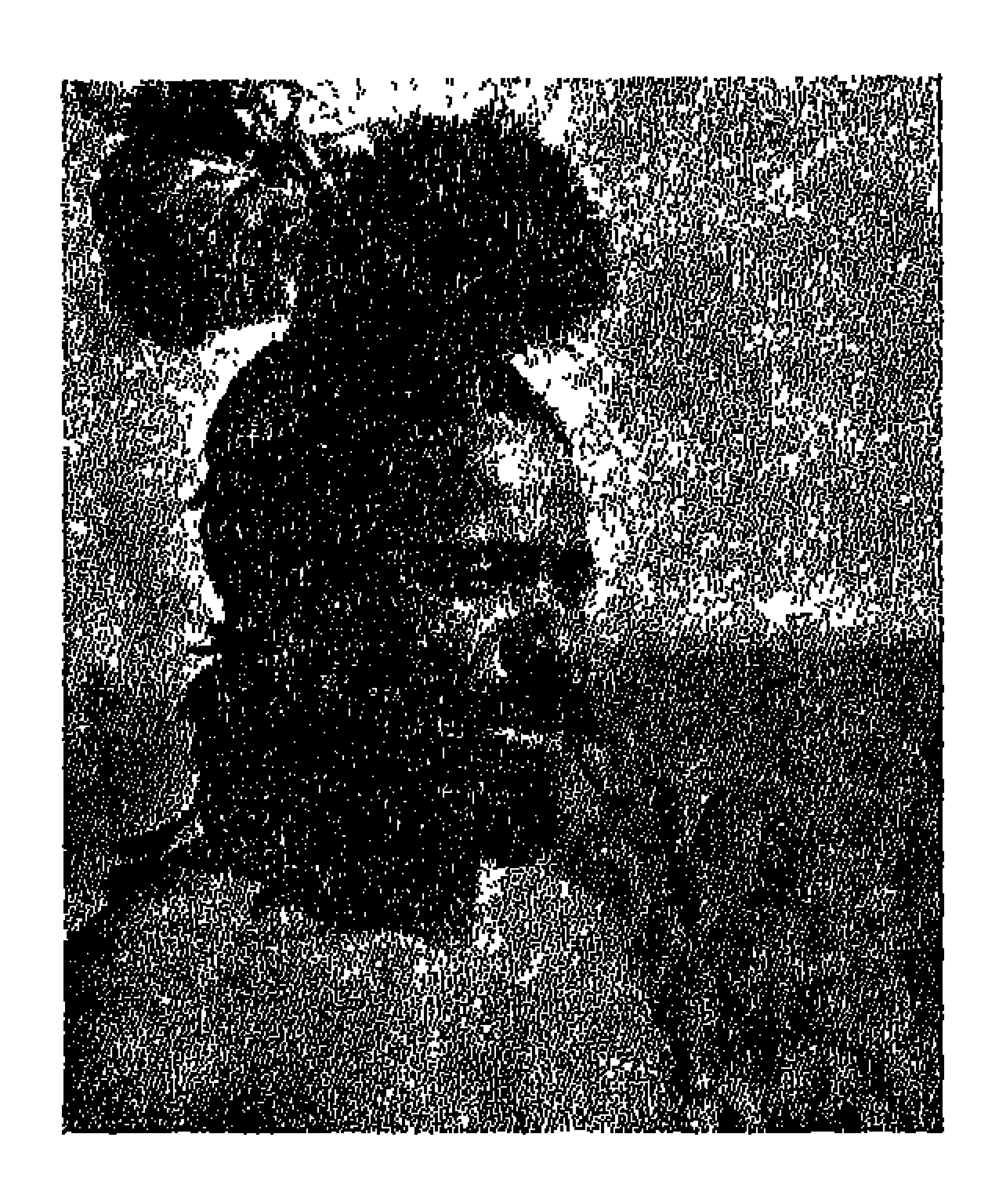
وكان صاحبى طبيباً تلقى علومه فى أكسفورد ، ثم هاجر إلى جنوب أفريقيا ، وكان وسيما ممشوق القامة فارع الطول حلو الحديث ، فما لبث أن التفت حوله قلوب الفتيات بمدينة الكاب ، ولمع اسمه فى المجتمع ، فأصبحت عيادته قبلة الطبقة الراقية ، إلى أن دعى ذات يوم لعيادة مريض فى حى الزنوج ، فهاله ما رأت عيناه من آيات البؤس والحرمان التى تنطق صارخة

فى وسط هؤلاء المنبوذين ، وبدلا من أن يتناول الأجور التى كان يجب أن يتقاضاها ، جاد بكل ما كان معه ، وآلى على نفسه أن يستجيب لنداء الرحمة والإنسانية المعذبة ، وأن يكرس حياته لخدمة السود ورعايتهم . . .

وانتقل بعدئذ إلى مدينة جوهانسبرج ، جنة البيض وجحيم الملونين ، حيث آثر أن يعيش فى حى المحرومين من نعيم الدنيا ، ولكنه لم يلبث أن قدم للقضاء ، بتهمة عدم الحصول على ترخيص بسكنى المنطقة ( الحرام ) المخصصة للزنوج ، وقررت المحكمة إدانته ، ولما دفع الغرامة ، طلب الترخيص بالإقامة ، فأجيب إلى طلبه ، ومنذ ذلك الحين لم يترك حى الزنوج يوماً واحداً ، بل ظل يواليهم برعايته ، ويداوى مرضاهم ، وينفق عليهم من ماله ، فاجتذب القلوب ، وأصبح السود يعبدونه من دون آلهتهم ، ويفتدونه بأرواحهم .

وقد أشرفنا على فريق من هؤلاء النسوة ، فلما رأينه افترت ثغورهن عن ابتسامات عذبة ، ورنت إليه الأعين بنظرات حافلة بدلائل الوفاء وعرفان الجميل .

قلت له : لقد أسرت القلوب بحنانك وطيبة قلبك ، وهذا هو الجزاء ؛
قال : إنهم على جانب كبير من طهارة القلب ، يقدرون اليد التى تسدى إليهم ، وقد لمست ذلك عند ما اجتاح وباء الجديرى حيهم ، ولم يكن عندى الكفاية من الأمصال الواقية ، فواصلت العمل على إغاثتهم ليلا ونهاراً ، ولما ضاقت بى الحيلة ، استنجدت بزميل يزاول مهنة الطب بمدينة الكاب ، وكان شهماً ذا نخوة ومروءة ، فلم يخيب رجائى ، بل ترك عيادته



المونون





حياة بدائية

وعملاءه ، وبادر إلىّ فى محنتى ، وكان خير عون لى فى مهمتى الشاقة ، فعاش إلى جانبى ثلاثة شهور دون أن يتبرم أو يضيق صدره ، حتى كتب لنا التوفيق وتوقفت موجة الوباء ، رغم إمكانياتنا الضئيلة .

وكنت أتطلع إلى محياه وأستمع إلى حديثه النمياض بالحماسة ، فجالت بخاطرى فكرة أثارت ضحكى . . .

وظن صاحبى أنى أسخر منه ، فقال محتجاً : أفى ذلك ما يضحك ؟

قلت : كلا ولكننى تذكرت الآن حادثاً ظريفاً . فقد هبطت بنا الطائرة فى مطار جوهانسبرج ، فلم يسمح لنا بمغادرة المطار إلا بعد أن أبرزنا لرجال الحجر الصحى شهادات تدل على السلامة من الأمراض المعدية ، ومن بينها الجديرى ؛ وقيل لنا إن هذه الشهادات إن لم تكن مستوفاة ، فإن علينا أن نعود من حيث أتينا . فخيل لى وقتذاك أننا قد نزلنا مدينة نقية طاهرة ، أحيطت بسياج من الوسائل الوقائية يمنع عنها كل أذى وإذا أنا أشهد مباءة الأمراض الفتاكة على أبوابها ، وشبح العدوى يهدد كيانها ، فلا يتخذ احتياط لعزل المرض ، بل يتركون أحراراً يتنقلون بين البيوت ، ويغشون الأماكن العمومية ؛ أفلا يكفى هذا التناقض لإثارة الضحك ؟

قال صاحبى : لو اقتصر الخطر على انتقال الأمراض بالعدوى لهان الخطب ، ولكن الرذائل والجرائم ترتكب هنا ولا تمتد إليها يد القانون إلا فيما ندر ؛ والانحراف الجنسى ، كما تعلم ، يلازم الشقاء ، ويترعرع فى ظلمات الفاقة ، ويتفاقم فى كل بيئة تسودها الفوضى . على أننى إذ أشير

إلى الانحلال الخلقى هنا . لا أقصد التعميم ؛ ولا يحول هذا دون إعجابى بما طبع عليه هؤلاء الأفريقيون من طيبة قلب . وصبر على الحرمان ، ومرح فى الشدة ، وما يبذلون من جهود صادقة فى سبيل إصلاح أمورهم والقضاء على الفوضى السائدة فى وسطهم .

فعلى الرغم من إمكانياتهم الضئيلة ، يحرصون على نظافة الدروب والطرقات ، وانتظام الأكواخ على جوانبها ، مما يوحى بأن لديهم فكرة بدائية عن فن تخطيط المدن ؛ ولا شك أنهم لو وجدوا من المال ما يفيض عن حاجاتهم الضرورية ، لشرعوا فى بناء البيوت بسواعدهم ووسائلهم الخاصة وهم — إلى ذلك — لا يطلبون إلا أن يكونوا مواطنين صالحين ، كما أنهم ذوو مواهب فنية وبراعة قلما تتوافر لدى البيض ؛ وكم كنت أتمنى أن تستمع إلى أناشيدهم التى تهز المشاعر وتنفذ إلى أعماق القلوب .

ثم استطرد صاحبى يقول : ولا يحزّ فى قلبى أكثر من اطراد الزيادة فى وفيات الأطفال ، وليس لى فى دفع ذلك حيلة ، فكم جأرت بالشكوى إلى سلطات البلدية ، وكم من مرة طالبت بأن تنظر بعين العطف إلى هؤلاء المنبوذين ، ولا سميع أو مجيب وتصور يا سيدى مدينة يبلغ عدد سكانها نحو ٤٠٠ ألف ، وليس فيها إلا مدرسة واحدة يتكدس فيها الأطفال وتكاد تزهق فيها الأرواح ؛ وإلا مستشفى واحد يطرح فيه المرضى أرضاً ، ورغم ذلك البؤس كله ، تسلط البلدية عمالها على هؤلاء المساكين لجباية العوايد المفروضة على الأرض المقامة عليها أكواخهم ، وثمن مياه الشرب التى يحصلون عليها بشق الأنفس من مضخة واحدة تقع على مسافة

كيلو متر من وسط المدينة ؛ وحتى دفن الموتى تتقاضى عليه البلدية رسوماً ، فتستنزف دماء هؤلاء المساكين وتستحل لنفسها مالاً حراماً ، لا تتفق منه إلا القليل على مرافقهم الحيوية . . .

وإذا سألت أحد المسئولين عن السر فى هذا الإهمال الشنيع ، أجابك بأن معظم أهالى الحى من الخارجين على القانون ، والفارين من العمل فى المناجم ، وأغلبهم لا يحملون ترخيصاً بالإقامة .

قلت : إن هذه المعاملة الشاذة أشبه بحكم الإعدام على هؤلاء القوم ؛ أفلا تنطوى قلوب المسئولين على ذرة من الرحمة والعدالة ؟ .

قال : الرحمة يا سيدى وقف على أبناء جنسهم الأوربيين ، والعدالة هنا خرافة كخرافة العنقاء . . .

# المشكلة الهندية

وها هى ذى مدينة ديربان ، ثالثة مدن الاتحاد أهمية وعظمة ، ترتمى فى أحضان المحيط ، ويمتد شاطئها الرملى البديع عدة كيلو مترات ، تحف به أشجار النخيل والصفصاف ، وتواجه مياه المحيط فنادق فخمة ومبان ضخمة تتخللها ( كازينوات ) ذات شرفات واسعة تضارع أجمل الكازينوات الأوربية ، ولا تقل فى روعتها عن ( الليدو ) بالبندقية ( والنجرسكو ) بمدينة ينس ( والجولف ) بدوفيل ؛ هذا إلى ما تحتويه من روائع الفن المعمارى والمصارف الضخمة والأمجاد العظيمة . . .

ديربان ، عاصمة ولاية الناتال ، مصيف أصحاب الملايين ، وأكبر ميناء ينافس مدينة رأس الرجاء الصالح ، بناه بعض الإنجليز عام ١٨٢٠ وما زال يحمل طابعهم ، وتقترن فيه أسباب الرفاهية ووسائل الهدوء والراحة ، بألوان اللهو البرىء والمحظور ، فتجد فيه النساء ذوات الفتنة الطاغية ، والجمال الأخاذ ، والشباب الغض ؛ كما تجد الموسيقى الصاخبة فى الكازينوات والكلاسيكية الحالمة فى أبهاء الفنادق .

فإذا ركبت الترام السريع انطلق بك إلى قلب المدينة ، وطالعتك أحياؤها القديمة بمنائر مساجدها وأبراج كنائسها ، وشوارعها الضيقة المنعرجة ، حيث تزدهر صياغة الذهب والفضة ، وصناعة الجلود ونسج الحرير اليدوى ، وتجمل وجهات المحال بما لذ وطاب من ألوان الحلوى

الفاخرة ، وتمتلىء الأرصفة بالباعة الجائلين يعرضون سلعهم الرخيصة على المارة ويساومون على الأسعار .

هناك تشهد النساء الهنديات ذوات البشرة الحمرية والشعر الأسود الفاحم ، وقد اتشحن بالسارى الهفهاف يسرن متئدات وقد ارتسمت على وجوههن سمات النبل .

وترى الرجال الهنود دائبي الحركة ، وقد تميزوا بغطاء رأسهم الأبيض ، على غرار بنى جنسهم أصحاب غاندى فى الهند .

وتختلط فى الطرقات قرقعة العجلات ، وضجيج آلات التنبيه فى السيارات ، وصوت المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة ، فنتساءل : أترانا فى مدينة الله أباد ، أم فى بومباى ؟

إن ديربان تكاد تكون مدينة هندية دماً ولحماً ، ترى فيها « الفقراء » يعرضون ألعابهم السحرية وقدرتهم الخارقة على التحكم فى النفس ، كما تراهم فى أى مدينة من مدن الهند . . .

وفيها يعيش أكثر من مائة ألف هندى ، إلى جانب أعدائهم الأوربيين الذين يتساوون معهم عدداً ، ويأبون عليهم حقوقهم المشروعة ، لتظل الأولوية للجنس الأبيض . . .

وهذه هى المشكلة الأليمة التى استغرق بحثها عدة جلسات عقدتها هيئة الأمم المتحدة ، وترامت أنباؤها إلى الرأى العام العالمى .

وقصة هذا العداء الكامن بين الهنود والأوربيين ، قديمة يرجع عهدها إلى نيف وأربعين سنة ؛ وزاد هذا العداء شدة ، قانون صدر منذ ثمانية

أعوام ؛ يحرم على الهنود تملك الأراضى وإقامة المبانى فى أحياء معينة من المدينة تعتبر وقفاً على الأوربيين دون غيرهم من الأجناس ، كما يحرمهم من حق التمثيل المباشر فى مجلسى النواب والشيوخ ، وعضوية مجالس البلدية فى بعض الولايات ، ولكنه يجيز انتخاب ثلاثة من الأوربيين يتكلمون باسمهم فى مجلس النواب واثنين فى مجلس الشيوخ للتعبير عن إرادتهم !

فما كاد هذا القانون يصدر حتى أثار عاصفة من الاحتجاج الشديد فى الدوائر الهندية ، وسحبت حكومة الهند مندوبها السامى لدى حكومة الاتحاد ، كما قررت قطع العلاقات التجارية بين البلدين .

ثم تألفت على الفور لجان المقاومة السلبية الهندية ، فى ولايتى الترانسفال والناتال ، لا سيا بمدينتى جوهانسبرج وديربان .

وجاء رد الأوربيين ناجزاً ، فقاطعوا محال التجارة الهندية ؛ فهبطت مبيعاتها هبوطاً محسوساً ؛ والعجيب أن التعاون ظهر جلياً فى ذلك الوقت بين الإنجليز والبوير ، مع ما بينهم من تناصر وتنافس ، ومع دأب الإنجليز من قبل على مناصرة العناصر الملونة ضد البوير ؛ وقد قيل فى تعليل هذه النزعة الجديدة ، إن مصدرها الحسد الذى يأكل قلوب الإنجليز على نشاط التجارة الهندية فى جنوب أفريقيا .

ومن حقنا أن نتساءل : بأى دافع تحركت الكنيسة لمناصرة حركة التفرقة العنصرية ؟ ثم لا يلبث أن يأتينا الجواب فى صورة تصريح أدلى به أولو الأمر قائلين إن هذا القانون « بمثابة حرب صليبية لدرء خطر الإسلام والبوذية » !

وأى دافع غير هذا الدافع الصليبى دعا الكنيسة إلى جمع التبرعات فى الكنائس لمواصلة حركة المقاطعة الهندية ؟

ولكن الإنصاف يقتضينا أن نستمع لحجج الفريقين ؛ فبماذا كان يتذرع الأوربيون لتبرير هذه التفرقة العنصرية ؟

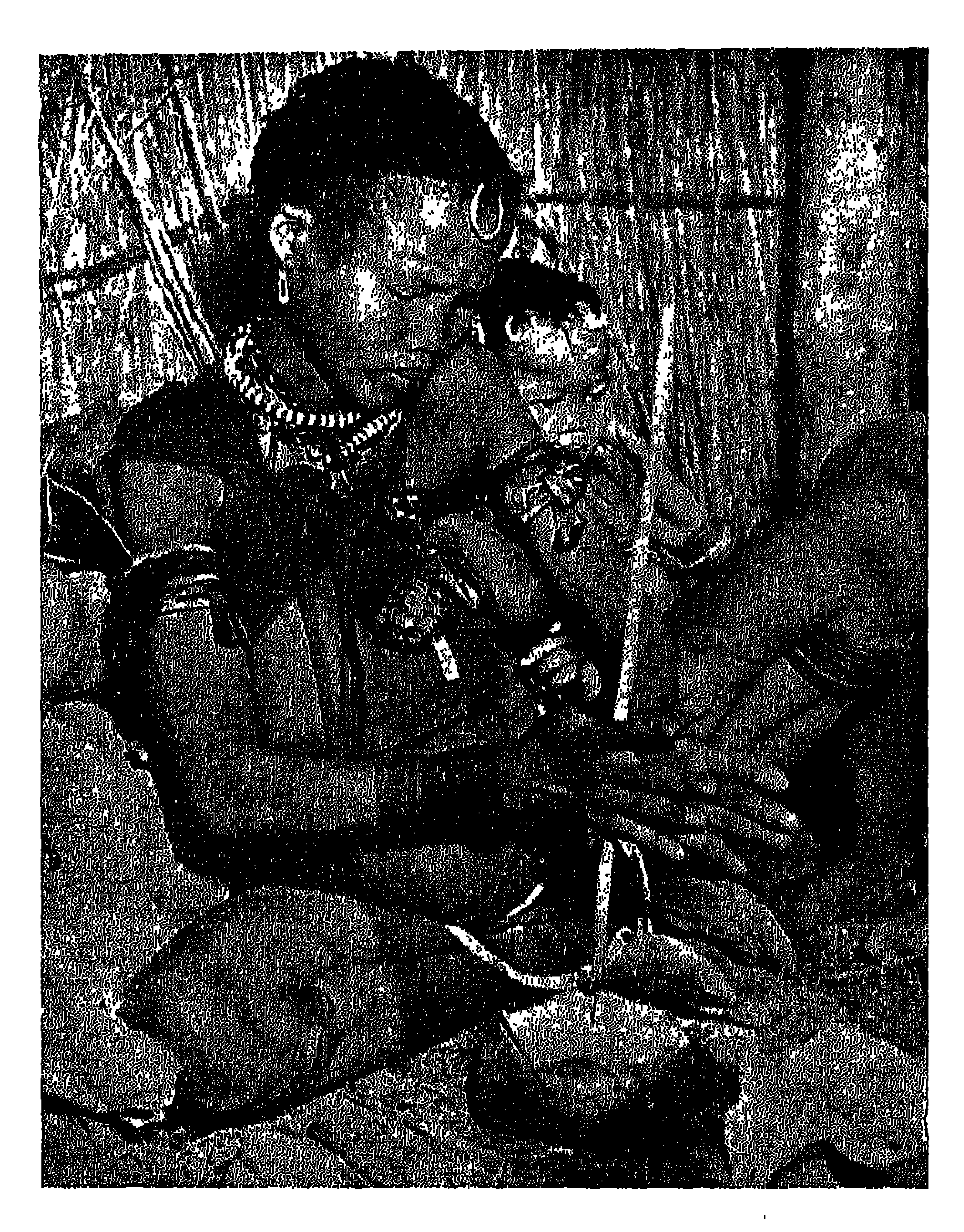
يقول ناطق بلسان الأوربيين ، وهو رئيس تحرير أوسع الصحف نفوذاً فى ولاية الناتال ، ولا ندرى أهو إنجليزى أم من سلالة البوير — يقول لأحد الصحفيين الأوربيين الذين زاروا المدينة منذ عهد قريب :

« إذا كنت تعتقد أن المساواة التامة بين الجميع ، بغض النظر عن اختلاف الألوان والأجناس ، شرط من شروط الديموقراطية ، فدعنى يا سيدى أقولها صريحة بلا لف ولا دوران : إن دولة الاتحاد ليست بديموقراطية . . .

« وقد درج الناس على توجيه النقد المر إلينا لأننا لا نمنح الأجناس غير الأوربية حق التصويت ؛ فما ظنك بالملايين من الأهالى الذين يعيشون فى ظل القوانين الإنجليزية ، هل لهم ممثلون فى مجلس العموم ؟

« وهل زرت المدينة الهندية وشهدت ما فيها من قاذورات وما يسودها من فوضى ، وما ينبعث فيها من روائح كريهة ؟

« إن القانون الذى صدر وأثار ثائرة الهنود ، يهدف إلى حماية الأوربيين من تسلل هذه العناصر إلى أحيائنا ، وقد أجاز لهم سكنى الأحياء المخصصة لهم ، ولم ينص على نزع ملكية عقار هندى ، وإنما حرم عليهم التملك فى الأحياء المخصصة للأوربيين ، إلا بترخيص خاص من السلطات ؛ فماذا



وطنية من أهل البلاد تثقب الخرز

فى ذلك من ضير عليهم ؟ وأى شىء فيه يدعو إلى هبوب هذه العاصفة ؟ وعلام هذا العويل ؟

لقد نزح أسلافهم إلى « بلادنا » منذ قرن واحد ، وكانوا فى حثالة القوم ، يتضورون جوعاً ويأبون مع ذلك أن يعودوا إلى بلادهم ، فتركناهم وما يشاءون ؛ فلما ازدهرت أحوالهم وتوطدت أقدامهم فى البلاد ، أخذوا يجأرون بالشكوى ويطالبون بالمزيد فى الحقوق ؛ أفلا يكفيهم ثلاثة « منا » يمثلونهم فى مجلس النواب واثنان فى مجلس الشيوخ ؟ »

( قال الصحفى ) فاعترضته قائلا : ولكن ممثليهم هؤلاء أوربيون !

قال : بطبيعة الحال . . . على أن للهنود الحق فى عضوية مجالس الأقاليم ومجالس البلديات .

قلت : هذا صحيح فى ولاية الناتال ، ولكننى علمت أن عُضوية الهنود فى مجالس الترانسفال قاصرة على اثنين منهم .

قال : فليقنعوا بما لهم من الحقوق إلى أن يتأقلموا ويعتنقوا عاداتنا ويأخذوا بأسباب المدنية الغربية ، ويلتزموا بواجبات المواطنين كافة .

قلت : كيف يلتزم المرء بواجبات وليس له حقوق ؟

فأجاب قائلا : هذا مجرد دفاع شرعى عن النفس !

## الرأى الهندى

[ قال ذلك الصحفى ] :

وقصدت بعد ذلك إلى مجلس المقاومة السلبية بالحى الهندى ، فراعنى هذا العدد الكبير من الشباب ، خريجى الجامعات الإنجليزية أو الإفريقية الذين يجمعون بين الثقافتين الهندية والغربية ، وقد تركوا أعمالهم وكرسوا أنفسهم لخدمة قضيتهم المقدسة ، وحل الكثير منهم ضيوفاً على السجون ..

هذه سيدة تنم قسماتها عن إرادة فولاذية وحزم شديد ، تقبل نحوى وتقدم نفسها إلىّ باسم الدكتورة جونام ، الطبيبة الهندية الوحيدة فى الاتحاد وهى تقول إنها قد وهبت حياتها لخدمة بنى جنسها ، وإنها قضت ستة شهور فى السجن ، وعوملت أسوأ معاملة لمجرد المطالبة بحقوق الهنود المسلوبة

وهذا مستر سنج ، أحد سكرتيرى مجلس المقاومة السلبية ، يقول إن الإدارة قررت إبعاده عن ولاية الترانسفال ، حيث كان يدرس الحقوق فى جامعتها . . .

فجلست إليه أستمع إلى أقواله فى شرح المشكلة :

قال : إذا كان أسلافنا قد نزحوا إلى أراضى الاتحاد عام ١٨٦٠ ، فقد جاءوا بناء على دعوة وجهت إليهم من حكومة الاتحاد ، ووعد صريح بأن يعاملوا معاملة المستوطنين الأوربيين ، ويخولون نفس حقوقهم ؛ فإننا وإياهم سواء فى هذه البلاد ، ليس لهم — ولا لنا — جذر ولا نسب ولا أبوّة ! . . .

وأردف مستر سنج يقول : ثم تكررت هذه الوعود فى أكثر من مناسبة علنية ، لا سيما وعدهم على لسان لورد سالسبورى ، عام ١٨٧٥ ، إذ قال بصريح العبارة ، وبالحرف الواحد : « إن هؤلاء الهنود سيكونون أحراراً من جميع الوجوه ، لهم مزايا وحقوق بقية المواطنين بالمستعمرة ، ولا يقلون عنهم فى شىء » .

ثم استطرد قائلاً : ولست فى حاجة إلى القول بأن هذه العهود قد ديست بالأقدام فلم يذكرها أحد من يومئذ ، أما حريائنا فقد عمدوا إلى تضييقها والحد منها فى كل فرصة تسنح لهم .

وأضاف فى عصبية ظاهرة : وكم سمعنا من أفواههم أننا منذ عدة أجيال مواطنون صالحون ، ندفع الضرائب ونقوم بكل واجبات المواطنين ، غير أننا لا نتمتع بحقوقهم ؛ فلا ممثلين لنا ، من أبناء جلدتنا ، فى البرلمان ولا نصيب لنا فى الحكم ، ولا حق لهندى فى شغل منصب رسمى ، هذا إلى إقصائنا من عدد كبير من مجالس الأقاليم والبلديات . ثم بلغ اضطهاد الهنود ذروته ، فصدر هذا القانون اللعين ؛ قانون التفرقة العنصرية ، وإقامة الفواصل بين طوائف أمة واحدة ، فلو قبلناه نحن الهنود لكان ذلك استخذاء من جانبنا ، واستكانة للضيم ، وهوانا لا ترضاه النفوس الأبية ؛ وإن الآلام الجثمانية لتهون إلى جانب الآلام النفسانية . . . هذا وقد استمعت الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى شكوانا ، وأخذت بوجهة النظر الهندية ، فأصدرت قراراً حكيما فى سبتمبر ١٩٤٦ ، ولكن حكومة الاتحاد أصمّت أذنيها عن صوت العقل ، فلم يطرأ على الموقف أى تغيير ؛ ولم يسكت

الهنود حتى يصدر قرار الأمم المتحدة ، بل ثاروا فى وجه هذا القانون الجائر غداة صدوره ، وعقدوا اجتماعاً فى أكبر ميادين مدينة ديربان ، شهده ١٣ ألف مواطن ، وأعلنوا بدء المقاومة السلبية ، وراح مائة من المواطنين ينصبون خيامهم فى أراضى البلدية التى حرّمها القانون على الهنود ؛ فما لبث رجال البوليس أن اعتقلوهم ، وحكم القضاء عليهم بالسجن . . . ومنذ ذلك الحين لم ينقطع الهنود أسبوعاً واحداً عن القيام بهذه المظاهرة الرمزية ، حتى بلغ عدد المسجونين نحو ألفين ، من بينهم ثلثمائة من السيدات !

ثم استرسل قائلا : وستتكرر هذه المظاهرة مساء اليوم ، فهل لك فى مشاهدتها ؟

قلت : ولمَ لا ؟

قال : سأمرّ بسيارتى أمام شرفة الفندق الذى تنزل فيه ، وعليك بمراقبة مرورى ، لأن دخول هذا الفندق محرم على الهنود !

فسألته : ولمَ هذا النفدق بالذات ؟

قال وقد بدت الدهشة على أساريره : ألا تعلم أن الفنادق الأوربية ، ودور السينما ، والمسارح ، والسكك الحديدية ، كلها أشياء محرمة علينا ؟

قلت : كلا ، وما كنت أتوقع أن أرى مثل هذا الإذلال القانونى ..

ولما عدت إلى الفندق ، ألفيت فى الشرفة عدداً من أدعياء الحضارة ، ذوى البشرة الحمراء والبطون المتدلية والأجسام المكتنزة ، يجلسون حول الموائد يكرعون الشراب الوطنى الأفريقى ، ويرتفع ضجيج أصواتهم

وضحكاتهم ، فلم أستطع كبت شعورى ، بل صوبت إليهم نظرة نارية ملؤها الازدراء ؛ وتذكرت وقتئذ قول غاندى : « هى النفوس التى يجب أن تتغير ، ولكن كيف السبيل إلى انتزاع أفكار بالية عتيقة تأصلت فيها وأصبحت من لوازمها ! »

ولما جاء سنج حسب الموعد ، استأنف الحديث قائلا : إن الحركة الهندية هادئة فى الوقت الحاضر ، لأننا لا نريد أن يتفاقم الموقف فتتعثر المفاوضات الدائرة بين حكومتى الهند والاتحاد ؛ فإن فشلت واصلنا الجهاد وعادت المظاهرات أكثر صخباً من ذى قبل ، إلى أن يحين موعد اجتماع الأمم المتحدة . . .

وسرنا فى الطريق حتى بلغنا مكاناً فى وسط المدينة ، نزل عنده سنج وأشعل مصباحه الكهربائى ، فألفينا عدداً من الرجال والنساء الهنود حضروا تلبية لنداء مجلس المقاومة .

وقد جلست فى السيارة أرقب تلك المظاهرة الرمزية ، فإذا بهم يتجاوزون سياجاً أقيمت عليه لافتة كتب عليها « أملاك البلدية . . . ممنوع الدخول . . . المخالفون يتعرضون للمحاكمة . . . » .

وتوغل المتظاهرون فى أرض البلدية ، وارتفعت هتافات الاحتجاج ، وإذا بأحد رجال البوليس يخرج من أحشاء الظلام وينير مصباحه ، ويستدعى الخارجين على القانون ، فيقيد أسماءهم ومقارّ أعمالهم ، ثم يدعوهم للحضور إلى المحكمة فى تمام الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى . . .

وينسحب رجل البوليس فيبتلعه الظلام وكأن شيئاً لم يحدث ؛ وبذلك انتهت تلك المظاهرة السلمية الرمزية ، فعدنا أدراجنا وذهب كل إلى سبيله . . .

وفى اليوم التالى قصدت إلى دار القضاء ، حيث يتقرر مصير إخوان الأمس المتظاهرين ، فإذا بهم يدلفون إلى قاعة المحكمة مرفوعى الرءوس موفورى الكرامة ، تبدو على سماتهم آيات التحدى والعزم ، وقد عقدوا سواعدهم على صدورهم وصوّبوا نظراتهم إلى قاضيهم ، الذى أخذ ينظر إليهم شزراً ، فى حين كان الكاتب يتلو أسماءهم . . .

ولم تستغرق المحاكمة أكثر من دقيقة واحدة ، إذ سأل القاضى المخالفين عما إذا كانوا مذنبين ، ولما جاء الرد بالإيجاب ، نطق القاضى بالحكم على كل منهم بالسجن شهراً واحداً مع النفاذ فوراً !

واقتيد الرجال والنساء جميعاً إلى قفص حديدى ، لا فرق بينه وبين أقفاص حدائق الحيوان ، ينتظرون فيه حتى تجىء السيارة التى تقلهم إلى السجن !

وقد أثار هذا المشهد الرائع طائفة من الأحاسيس فى نفسى ، فلم أستطع كبح إعجابى بشجاعة هؤلاء الهنود وإيمانهم بقضية مواطنيهم العادلة فلما لوّحت لهم بيدى مودعاً ، رأيت الابتسامات مرتسمة على الشفاه ، وتكاد القلوب تنفجر بعبارة : « لا يضيع حقٌ وراءه مطالب » !

وقد علمت بعد ذلك أنهم يعاملون فى السجن معاملة المجرمين العاديين ، يفرض على النساء غسل الأرض وجمع القمامة وغير ذلك من الأعمال التى

تثير الاشمئزاز ، فيقبلن عليها بنفوس راضية !

وقيل لى إن غاندى ، صاحب نظرية العصيان المدنى وأول من قام بتطبيقها منذ عشرين عاماً ، كان فى مجالسه يبدى إعجابه بتلاميذه الذين اعتنقوا مذهبه فيما وراء البحار . . .

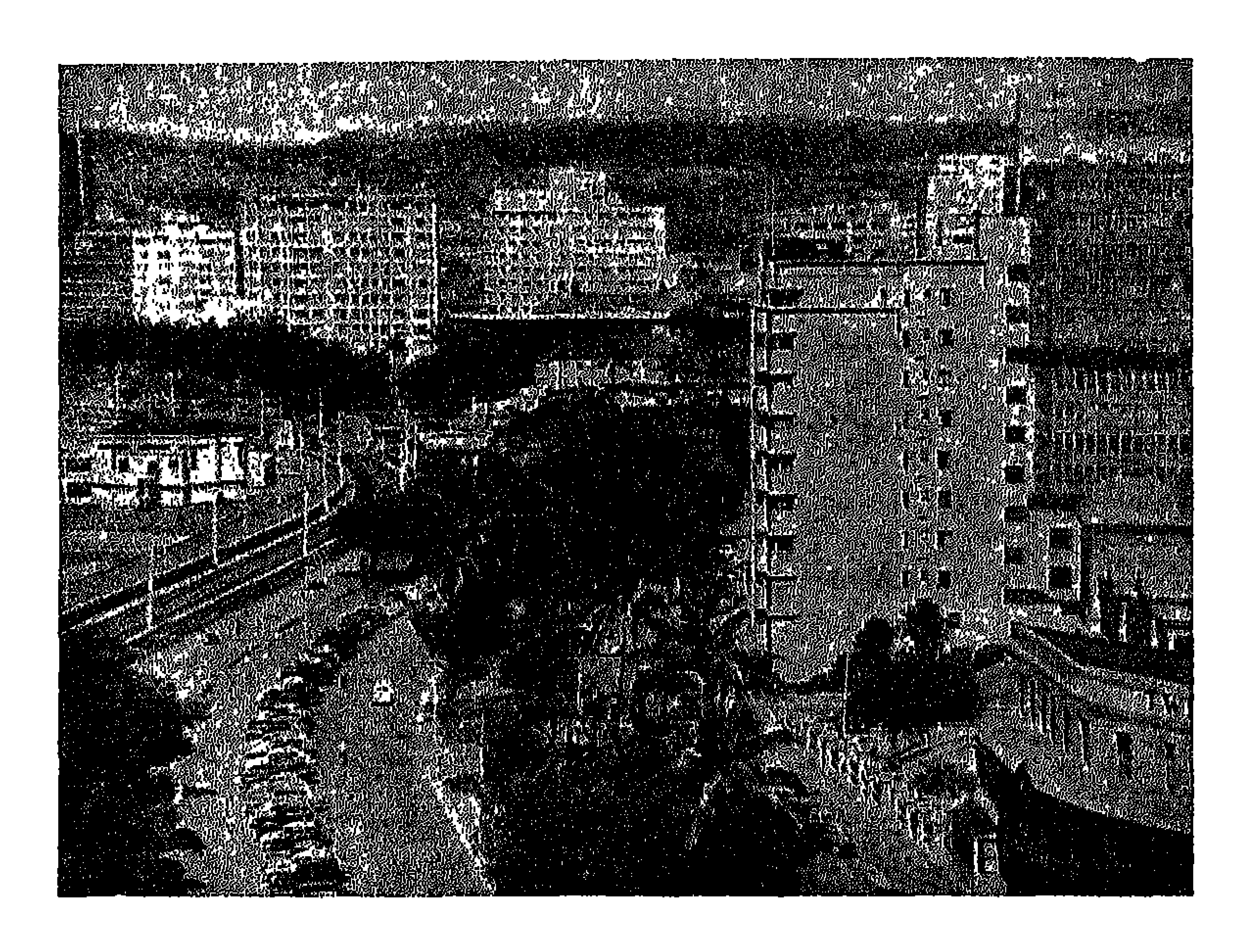
* * *

وليست مدينة ديربان بموطن رجال الفكر وأصحاب المحال التجارية الهنود فحسب ، بل يعيش فيها سبعون ألفاً من الكادحين الذين يعملون فى مزارع قصب السكر . . .

وتعد صناعة السكر أولى الصناعات التى نحظى برعاية حكومة الاتحاد وحمايتها ، وأكثرها نصيباً من الإعانات الحكومية ، وقد أصاب أصحابها ثروات عريضة تتضخم عاماً بعد عام .

ويتضح من الجدول التالى مدى استغلال أصحاب هذه المزارع للأيدى العاملة ، من واقع تكاليف الإنتاج فى مختلف البلدان الشهيرة بإنتاج السكر :

| الدولة | تكاليف إنتاج الطن | | الدولة | تكاليف إنتاج الطن | |
|---|---|---|---|---|---|
| | شلن | جنيه | | شلن | جنيه |
| ريطانيا | ١٠ | ٢٣ | أستراليا | ١٥ | ١١ |
| الولايات المتحدة | ١٨ | ١٨ | إندونيسيا | ١٢ | ٩ |



مدينة ديربان

فى حين لا تتجاوز تكاليف الإنتاج فى ولاية الناتال ستة جنيهات وخمسة عشر شلناً ، ومع ذلك فقد بلغ مجموع الإنتاج ــ الذى يتولى الإشراف عليه جماعة من الأوربيين ــ ٦١٣١٥٨ طن خلال عام ١٩٤٣ ، ويعد هذا رقماً قياسياً فى تاريخ صناعة السكر منذ إنشائها فى جنوب أفريقيا .

فإذا سألت عن سر هذا الإنتاج الضخم ، زعم الأوربيون أنه النظام وحسن الإدارة ، واعترض عليهم ذوو الأفكار الحرة الذين درسوا المسألة قائلين : إن ذلك راجع إلى الأجور الضئيلة التى تصرف للعمال ولا تكاد تردّ عنهم غائلة الجوع ، سواء فى المزارع أو فى معامل التكرير . . .

وتمتد مزارع قصب السكر مئات الأميال على سفوح الجبال بمحاذاة الساحل على مقربة من ديربان ، ويشتغل فيها عدة ألوف من العمال ، بين رجال ونساء وأطفال لا تزيد أعمار الكثير منهم على اثنى عشر عاماً ، يعملون فى ثياب مهلهلة ، من شروق الشمس إلى غروبها ، وتحت وابل من الأمطار الغزيرة التى تهطل على المناطق الاستوائية ، ويتخلل هذه الساعات الطويلة من العمل المضنى ، ساعة واحدة يتبلغ فيها عمال المزرعة بما لا يكاد يقيم الأود ويحاولون إراحة أجسامهم التى أنهكها التعب !

ويبلغ متوسط الأجور التى يتقاضاها هؤلاء العمال شهرياً :

جنيهين وعشرة شلنات ــ أى ما يقرب من ٢٥٠ قرشاً ــ للرجل .

وجنيهاً وتسعة عشر شلناً ــ أى ما يقرب من ١٩٥ قرشاً ــ للمرأة .

واثنى عشر شلناً وستة بنسات ــ أى ما يقرب من ٦٢ قرشاً ــ للطفل .

وكثيراً ما تعمل المرأة أثناء شهور الحمل ، لكى يتسنى لها أن تقتصد

عدة شلنات تستعين بها لمواجهة نفقات الولادة ؛ ذلك لأن الإعانات الاجتماعية قاصرة على البيض دون الملونين ! . . .

وقد يعترض البعض بأن أصحاب المزارع يقدمون الغذاء والمسكن لهؤلاء العمال السود ، وهذا صحيح ، ولكن . . .

تلك المساكن هى خيام مصنوعة من نسيج شراع المراكب ، أو أكواخ مصنوعة من الصاج المتعرج ، وتقع على مسيرة عدة كيلو مترات من أماكن العمل ، وتكاد تشبه حظائر البهائم ، فالإضاءة فيها قاصرة على الشموع أو مصابيح الزيت البدائية ، والرياح تنفذ خلال شقوقها ، ولا أثر فيها للوسائل الصحية . . .

أما التغذية فلا تتناسب مع الجهد الشاق الذى يبذله عمال المزارع ، وهذه هى الكميات التى تصرف لكل فرد من العمال البالغين أسبوعياً :

خمسة كيلو جرامات من دقيق الذرة أو البقول الجافة ، ورطلان من السكر ومثلهما من الملح ، وكيلو جرام من الزيت شهرياً . أما الأسماك واللحوم فأشياء يسمعون عنها فى مجالسهم ولا يرونها ، وأما أولئك الذين يعولون أسرات كبيرة فيضطرون بين الثمينة والثمينة لشراء المزيد من الطعام ، مما يستنفد الجانب الأكبر من أجورهم الضئيلة ، فلا يبقى لهم بعد ذلك ما يكفى لشراء ما يستر العورة ، أو يقى الجسد التقلبات الجوية القاسية !

ولقد شاهدت بعينى رأسى آثار نظام التغذية هذا أثناء إقامتى فى مدينة ديربان ، حيث عقدت جلسات مؤتمر السل ، واطلعت على التقارير الطبية والإحصائيات الرسمية التى تسجل الخزى على السلطات الصحية فى الاتحاد . .

لقد جاء فيها أن عدد الوفيات بين المصابين بالأمراض الصدرية من غير الأوربيين فى هذه المدينة وحدها يبلغ ثلثمائة يومياً ، هذا عدا فريق من هؤلاء التعساء يتحاملون على سيقانهم حتى يبلغوا القرية فيموتوا فيها ، بعد أن ينقلوا العدوى إلى ذويهم !

وسمعت الدكتور جلوكمان ، أحد أعضاء المؤتمر المبرزين ، يخطب فى إحدى الجلسات وينعى على الحكومة المركزية إهمالها الشنيع فى رعاية الأطفال الملونين ، الذين يموت منهم مئات الألوف سنوياً من نقص التغذية ، والتعرض بالتالى لمرض السل ؛ ثم يقول : إن نصف المواليد الزنوج يموتون خلال السنة الأولى من أعمارهم القصيرة . . .

وبالرغم من المساعى المتكررة التى قام بها العمال الزنوج لدى السلطات لإنشاء مدارس لأطفالهم فى الإقطاعيات الكبرى ، لا توجد مدرسة حكومية واحدة ، مما حدا بهؤلاء العمال إلى التضحية بجانب من أجورهم الضئيلة ، مستعينين بالتبرعات التى يجمعونها فيما بينهم ، لإنشاء مدرسة خاصة ، يؤمها اليوم عدة مئات من الأطفال ، يتلقون مبادىء القراءة والكتابة على يد معلم من بنى جلدتهم . . .

وهكذا يولد آلاف الأطفال الزنوج ويشبون ويقطعون مرحلة الحياة ، وهم أميون يخيم الجهل على عقولهم حتى ينتهوا إلى مثل مصير آبائهم التعساء ! والخلاصة أن صناعة السكر تدر على أصحابها الملايين ؛ فى حين يتقاضى العمال أتفه الأجور ويعيشون فيما يشبه الحظائر ، ويعانون نقص التغذية ، فتضعف المقاومة ويتعرضون لشتى الأمراض ، دون حماية

من قانون أو رعاية من نقابة . . .

هذه هى حالتهم التعسة . . .

لقد تحالفت قوات الشر لإبادتهم :

الفقر والجهل والمرض . . . وحكومة الاتحاد !

ولكنها حال لا يمكن أن تدوم، فقد حدث خلال ١٩٤٢ ، أن أضرب عن العمل فى إحدى المزارع مائتان من العمال الزنوج ، مطالبين برفع الأجور إلى الضعف، فما كان من صاحب المزرعة إلا أن استنجد بقوات البوليس ، فجاءوا يحملون العصى الغليظة والأسلحة النارية والغاز المسيل للدموع ، وكأنهم فى ميدان قتال ؛ فلما تحصن العمال المضربون بمساكنهم ، حاصرها البوليس وأطلق النار على من فيها ، فلم يجد هؤلاء بدآ من التسليم ، بعد أن مات منهم خمسة عشر رجلا ، ثم سيقوا إلى المحكمة بتهمة العصيان والتمرد ، فحكمت على كل منهم بالحبس شهراً ، وبغرامة قدرها ثلاثة جنيهات . . .

ثم تطورت الحال فيما بعد، وتأسست نقابة العمال غير الأوربيين ، فأصبحت جزءاً من اتحاد النقابات الزراعية ، وعلى الرغم من اضطهاد السلطات وتهديداتها المتكررة، تضخم عدد المشتركين من الهنود والملونين والزنوج ، حتى بلغ عددهم الآن قرابة مائة ألف ، يقومون بسداد اشتراكاتهم ويتمسكون بحقوقهم النقابية فى حماسة منقطعة النظير. . .

* * *

وأكثر ما يثير الاهتمام ويسترعى النظر ، هو روح التعاون السائدة

الآن بين سائر الأجناس غير الأوربية ؛ فكم من مرة سمعت ، منذ وطئت قدماى أراضى الاتحاد ، عن الخصومة والعداء المستحكم بين هذه الأجناس وكم أفاضوا فى شرح أسباب الفرقة والخلف فيما بينها ، حتى شهدت بعينى رأسى بوادر الألفة ، ولمست دليل الرغبة فى الوحدة ، عند عودتى إلى مدينة جوهانسبرج ؛ فقد رأيت مظاهرة ضخمة ، قوامها نحو ٢٠ ألفاً ، اشترك فى تنظيمها المؤتمر الوطنى الأفريقى ومؤتمر الهنود بالترانسفال وهيئة الشعوب الأفريقية ؛ وقد احتشدت هذه الألوف المؤلفة فى أحد الميادين الكبيرة بالمدينة ، فكنت ترى الوجوه البرنزية ، والسمراء ، والسوداء ، تنم سماتها عن العزم والنخوة ، وتطالعك فى وسط هذه الجموع طرابيش حمراء وبيضاء إلى جانب الريش ذى الألوان الزاهية ، وأثواب السارى الهندية إلى جانب الغلالات البيضاء التى يتشح بها نساء الزولو ؛ وترتفع الأصوات بالنشيد الوطنى الحزين ، ثم تنطلق هتافات الوحدة مدوية من حناجر الأسيويين والأفريقيين على السواء . . .

وكان على رأس هذا الاجتماع زنجى يدعى الدكتور زوما ، زعيم المؤتمر الوطنى الأفريقى ، فوقف فى أعلى المنصة يخطب بصوت جهورى ونبرات عميقة نفاذة ، ويقول : إن هذا الاجتماع من أجل الوحدة ، يعد يوماً مشهوداً وحدثاً تاريخياً يجب أن يستقر فى الأذهان ويتوالى الاحتفال بذكراه سنة بعد سنة . . .

ثم تلاه خطباء من مختلف الألوان والأجناس والنحل ، وألح كل منهم ضرورة التمسك بأهداب الوحدة وحقوق الأفراد والجماعات ، فى وسط

عاصفة من الهتاف والتصفيق .

ووقف أحدهم يدق ناقوس الخطر ، ويحذر بنى وطنه من خطر تبدو نذره فى الأفق وتهدد مصير وحدتهم المقدسة ، خطر اتحاد الكلمة بين حزب سمطس وأنصار مالان ، والخروج من الأمم المتحدة ، وما يتبع ذلك من تشديد النكير على العناصر غير الأوربية ؛ ثم عقب على ذلك قائلا : « فلا سبيل إلى دفع هذا الخطر إلا بضم الصفوف وتآلف القلوب ، وعندئذ لا يجد الظالمون والمستغلون ثغرة ينفذون منها إليكم ! »

فالتهبت الأكف بالتصفيق ، وعلت الهتافات ، ثم جاء على الأثر زعيم الهنود ( رستم جى ) ، وزعيم الزنوج ( نايدو ) ، فشد كل منهما على يد الخطيب ؛ وكان هذا العمل رمزاً للأخوة وصفاء القلوب ووحدة الكلمة . . .

ثم أعقب ذلك قرار من المؤتمر بالقيام بحملة دعاية فى مختلف مدن الاتحاد ، لتحقيق الوحدة بين الأجناس غير الأوربية .

وانفض الاجتماع ، فهمس أحد الهنود فى أذنى قائلا : « لولا قوانين التفرقة العنصرية ، ولولا الاضطهاد الذى لحق بالهنود ، لما فكر أحد منا فى التقرب من إخوانه الآخرين ، ولذهبت ريحنا هباء ، وتشتت جهودنا ! ولكننا الآن قوة لا يستهان بها ، وعلى حكومة الاتحاد أن تعمل لها حساباً !

# زعيم الزنوج

وبعد عدة أيام ، ذهبت لزيارة الدكتور زوما ، زعيم المؤتمر ، فى داره المتواضعة ، فأحسن استقبالى ، وقدمنى إلى عقيلته ، ثم دعانى لتناول فنجان من الشاى ، ودار الحديث بيننا حول مشاغله العديدة ، فقال لى إنه تخرج فى إحدى كليات الطب الأمريكية ، وكان فى استطاعته أن يزاول المهنة فى الولايات المتحدة ، ولكنه آثر العودة إلى وطنه لخدمة بنى جنسه ، ومحاولة انتشال الزنوج من الوهدة التى شاءت حكومة الاتحاد أن يتردّوا فيها . . .

وذكرت زوجته أنها كرست حياتها لإرشاد بنات جنسها إلى ما فيه خيرهن ، وتلقينهن قواعد الصحة العامة ، وطرق الوقاية من الأمراض المعدية ، ومبادئ زراعة الخضر ؛ ثم أكدت لى أن هؤلاء النسوة ما زلن على الفطرة ، ومع ذلك فإنهن على جانب من الذكاء ، ويدركن مدى الفوائد التى يجنينها من أتباع الإرشادات ، وقلما تضطر لتكرار ما لقنتهن إياه من قبل !

وسألت الدكتور زوما عن حالة الزنوج فى أمريكا ، وهل هى أفضل من حالة بنى جنسه فى جنوب أفريقيا ؟

فقال : إنهم بطبيعة الحال فى وضع أفضل من وضع الأفريقيين ، لأنهم يعتبرون مواطنين ولهم حق التصويت ، إلا فى بعض الولايات ؛ وإذا

استثنينا بعض المظالم التى يعانونها فى نطاق ضيق محدود ، نجدهم متساوين فى الحقوق الدستورية مع البيض ، على خلاف وضع الزنوج فى الاتحاد ، حيث تسن القوانين لمحاربتهم . . .

ثم أردف : وقد يكون التعصب ضد الزنوج فى الولايات المتحدة فكرة قديمة قد تأصلت فى أعماق النفوس ، على غرار كراهية الأجناس الساميّة ، ولكن هذا التعصب وهذه الكراهية لا توجدان فى القوانين على الأقل !

فسألته : وما رأيك فى تعذيب الزنوج فى أمريكا ؟

قال : إن حالات التعذيب نادرة الوقوع فى أغلب الولايات الأمريكية ، وقد تحدث فى الجنوب أحياناً فتثير ثائرة الرأى العام ، أما هنا فإن قوانين الحواجز الاجتماعية التى تفرض العذاب والمذلّة على السود ، هى أساس الدستور والنظام العام ؛ فالعامل الأسود لا يستطيع أن يبرح مكان عمله إلا بترخيص ، وحق الاضراب ، كما تعلم ، غير معترف به للسود !

قلت : لعل الاجتماع الذى عقدتموه منذ عدة أيام قد أحيا ميت الآمال عندكم . . .

قال : لا شك فى ذلك ، والرأى عندى أن تنظيم الصفوف واتحاد العناصر الملونة كفيل بإزالة العقبات التى تعترض سبيلها ، وفى مقدور الهنود ، الذين يتمتعون من دون الملونين ببعض الحقوق هنا ، أن يفعلوا الكثير ويضموا إلى صفوفهم الزنوج الذين لم يكتمل لديهم الوعى القومى ولم يدركوا بعد مدى قوتهم وبأسهم ؛ وهذا هو الهدف الذى نسعى إليه ونعمل على بلوغه . . .

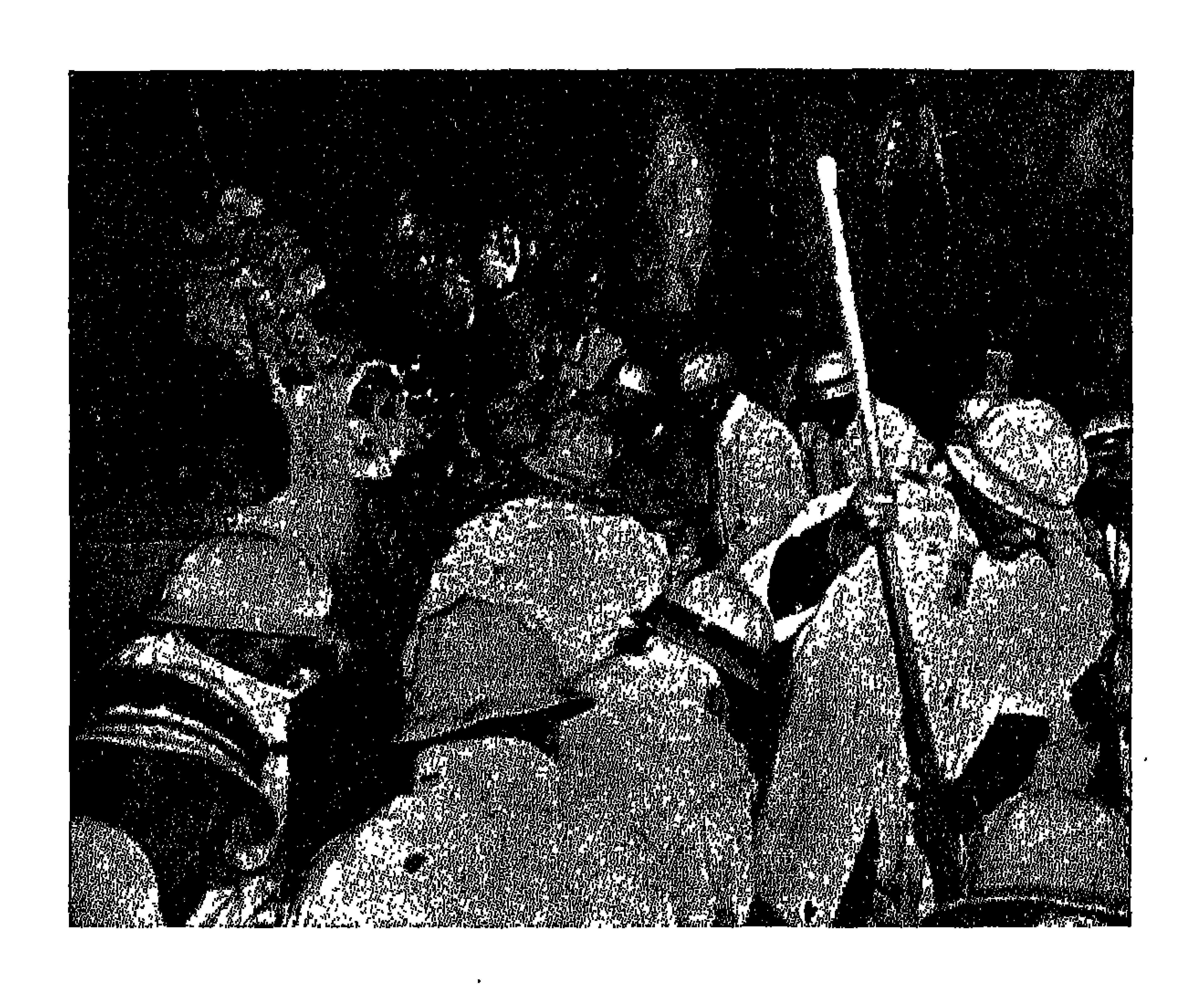
## فى الأمم المتحدة

وفى شهر نوفمبر ١٩٤٧ ، ناقشت الجمعية العامة للأمم المتحدة مشكلة جنوب غرب أفريقيا ، وشكوى الهنود من قوانين التفرقة العنصرية . . .

أما المشكلة الأولى فتتلخص فى أن المستعمرة الألمانية بجنوب غرب أفريقيا وُضعت ، بعد معاهدة فرساى ، تحت انتداب اتحاد جنوب أفريقيا ، وظلت فى هذا الوضع حتّى انتهاء الحرب العالمية الأخيرة ، فتقرر أن تعود جميع الأراضى الواقعة تحت الانتداب إلى مجلس الوصاية ؛ ولكن حكومة الاتحاد ادعت ، بدون وجه حق ، أنها ضمّت هذه الأراضى لأملاكها . . .

وكانت الجمعية العامة قد رفضت فى دورتها لسنة ١٩٤٦ ، نظرية حكومة الاتحاد ، ودعتها إلى المبادرة بتسليم الأراضى التى تحت يدها إلى مجلس الوصاية ؛ فلم تحرك حكومة الكاب ساكناً ، وقام مندوبها ، لورانس ، وزير الداخلية ونائب المارشال سمطس ، يؤكد حقوق بلاده على المستعمرة المذكورة ، ويكرر دعواها السابقة ، قائلا فى تبجح : « إن حكومتى ، بدافع من احترامها للهيئة الدولية ، لم تعمد إلى إدماج هذه الأراضى فى الاتحاد ، وكان ذلك فى استطاعتها ، استجابة لرغبة الأغلبية الساحقة من سكان المستعمرة وزعماء قبائلها » . . .

وقد رد عليه القس ميكايل سكوت ، بالنيابة عن زعماء العشائر ، بأن



الوطنيون السود فى مناجم الذهب

هذه الدعوى لا تستند إلى أساس ، وأنه موفد من قبل هؤلاء الزعماء ، ليقرر أمام الجمعية العامة أنهم يرفضون بشدة ضم أراضيهم إلى اتحاد جنوب أفريقيا وخضوعهم لقوانينه الجائرة . .

وبعد مناقشات حادة ، تناول بعض المندوبين أثناءها بالنقد المرير سياسة التفرقة العنصرية التى تتبعها حكومة الكاب ، وتتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة ، اتخذت الجمعية قراراً — بأغلبية ٤١ صوتاً ضد عشرة أصوات وامتناع أربعة — ينص على « استعجال حكومة الاتحاد بتقديم تقرير عن تسليم ما تحت يدها إلى مجلس الوصاية ، قبل دورة الجمعية العامة التالية . . . »

وعرضت بعد ذلك شكوى الهنود من قوانين التفرقة ، فندد عدد كبير من المندوبين بموقف حكومة الاتحاد ، ورموها بانتهاج الوسائل النازية وارتكاب مثل خطاياها ؛ وتعرّض مندوبها لحملة من النقد الشديد واستنكار الرأى العام العالمى . . . .

وعلى الرغم من ذلك فقد قامت بريطانيا بضغط على مندوبى الدومنيون ، كما قامت الولايات المتحدة الديموقراطية بالضغط على الدول التى تدور فى فلكها ، لتوجيه رأى الهيئة وجهة أخرى ؛ وكانت النتيجة أن قرار الجمعية الذى يقضى بوقف قوانين التفرقة ، لم يفز بأغلبية ثلثى الأصوات المطلوبة ؛ ولو أنه فاز بها لما تغيرت النتيجة ، وهذا أكبر دليل على عجز الأمم المتحدة ، وانهيار هيبتها . . .

# مستقبل جنوب أفريقيا

صدق من وصف اتحاد جنوب أفريقيا بأنه أقصر بلدان العالم تاريخاً وأكثرها تخبطاً فى المشاكل المستعصية . . .

وما أعجب هذا فى بلد أغدقت عليه السماوات خيراً عميماً وفيضاً متصلا ، وحبته الطبيعة بموقع ممتاز يحسد عليه ، فلم يكتو بنار الحرب التى اكتوى بها العالم كله ، بل ازداد سكانه رخاء على ما كانوا فيه من رخاء ، واستحدثت فيه صناعات ، وتضاعف الإنتاج ثلاث مرات حتى بلغت حصيلته ثلاثمائة مليون من الجنيهات ، وحتى فتحت الحكومة الباب على مصراعيه أمام المستوردين .

يضاف إلى ذلك وجود الفحم فيه بكثرة على مقربة من مناجم الذهب ، وهذه مزية عظيمة قلما تتوافر فى بلد آخر . . .

ودعنا من الحديث عن المعدن النفيس فى جنوب أفريقيا ، فحسبنا القول إن ثلث ما يوجد من الذهب فى العالم بأسره مستخرج من مناجم الترانسفال ؛ ويعتبر فى الاتحاد نفسه من مقومات الاقتصاد الرئيسية ، إذ أن ما يقرب من ثلثى إيرادات الدولة من حصيلة الضريبة المفروضة على أرباح المناجم ، وعليها يعتمد فى إعانة الزراع والنهوض بالصناعات الثانوية .

وقد تبدد القلق الذى ساور النفوس من جراء نفاد الذهب من بعض المناجم وتناقصه فى بعضها الآخر ، بعد اكتشاف عروق من الذهب

فى ولاية الأورانج تبشر بالإنتاج الوفير .

هذا إلى الحديد ومعادن الكروم والمنجنيز والبترول ، التى توجد بكثرة فى باطن أراضى الاتحاد ، وإن كان استغلال البترول لم يبدأ بعد على نطاق واسع ، وكذا الكروم وأشجار الفاكهة التى تشتهر بها ولاية الكاب ، كما تشتهر هضاب ( الكاروه ) بفصيلة من الأغنام تتهافت على أصوافها الممتازة أسواق العالم أجمع . . . .

ومن أهم موارد الثروة القومية فى الاتحاد ، زراعة قصب السكر وتكريره . . .

وعلى الرغم من تعدد موارد الثروة وضخامتها فى الاتحاد إلى الحد الذى وصفناه ، تعتبر بلاد جنوب أفريقيا من أفقر بلاد العالم ، إذ يبلغ متوسط دخل الفرد ٤٥ جنيهاً فى السنة ، فى حين يبلغ متوسط الدخل فى بلاد ( الدمنيون ) التابعة لبريطانيا ، مائة جنيه ، ويبلغ ضعف هذا الرقم فى الولايات المتحدة . ولا يمنعنا من ملاحظة قلة متوسط الدخل فى الاتحاد إلى هذه الدرجة ، أنه — فى جملته — لا ينتفع به إلا القليل من الأوربيين ذوى البشرة البيضاء ، دون الملايين من الملونين والسودان والهنود !

فلم كان الدخل قليلا إلى هذا الحد ، مع كثرة ما يفيض على البلاد من الخيرات ؟ . . . .

ذلك لأن ربع عدد السكان من المترفين الذين يعيشون فى مستوى عال من الترف والرفاهية ، أو على الأقل ، فى بحبوحة من العيش ؛ فى حين لا يجد ثلاثة أرباع السكان ما يكفى لسد الرمق وستر العورة ؛ ومن ثم

اختلت الموازين وشاع الاضطراب بين مختلف طبقات الشعب ، ولم يبلغ الإنتاج أقصى إمكانياته .

وقد صرح أحد رجال الاقتصاد بأن مناجم الذهب هي التي تنهض بعبء الاقتصاد في جنوب أفريقيا ، فلو توقفت عن الإنتاج لانهار صرحه وتداعت أركان الدولة بأسرها . . . .

ويقول أصحاب المناجم إن بقاءها رهن باستمرار الأجور الضئيلة التي تصرف للعمال ، مع تخصيص الضريبة التي تجبى على أساس أرباح الذهب ، لإعانة الصناعات الناشئة والنهوض بالزراعة .

ولما كانت المنتجات الصناعية قاصرة عن منافسة مثيلاتها من المنتجات الأجنبية ، ولما كانت المحاصيل الزراعية تباع في الأسواق الأوربية بأقل من سعر التكلفة ، والأمل ضعيف في دفع أسعارها ، لضعف القوة الشرائية بين أغلبية السكان ، فإنه لا جدوى من الإعانة . . .

تلكم هي الدائرة المفرغة ، فلو وُجدت السوق الداخلية التي تسد حاجة عشرة ملايين من السكان الملونين ، لانفرجت الأزمة وهان الأمر ، ولكن أين توجد هذه السوق في بلد يعيش سكانه في فاقة وعوز وليس لهم قوة شرائية ؟

فالمشكلة والحالة هذه مستعصية الحل ، ومنها تتشعب المشاكل الأخرى ، فأزمة المساكن تعتبر أكثر حدة في جنوب أفريقيا منها في جميع أنحاء العالم والسبب في ذلك راجع إلى استمرار هجرة الأهالي إلى المدن سعياً وراء الرزق ، وسكنى عدد كبير من البيض الفقراء في أحياء الملونين والسود ، على ضيق هذه الأحياء . . .

ولا ننكر أنه قد بذلت بعض محاولات فى سبيل التخفيف من حدة هذه الأزمة فى بعض المدن ، إذ أعدت البلديات أماكن فى أطراف كل مدينة لإنشاء مساكن عمالية ، ولكن هذه المحاولات تعتبر قطرة من ماء فى محيط واسع ، فماذا يجدى بناء ألف مسكن أو ألفين ، حين تكون الحاجة ماسة لبناء ١٥٠ ألف مسكن على أقل تقدير ، وكيف يقال إن الأزمة بهذا العدد القليل فى سبيلها إلى الانفراج ؟

وربما يتساءل متسائل : لماذا لا تستنجز السلطات بناء هذه المساكن؟ فيأتيه الجواب بأن علة ذلك ضآلة الاعتمادات المخصصة لهذا الباب ، وارتفاع أجور العمال البيض لقلة عددهم .

فإذا ما اعترض بأن الزنوج قادرون على مثل عمل هؤلاء البيض ، وأنهم على استعداد لبناء مساكنهم . قيل إن النقابات الأوربية ، استناداً إلى قانون الحواجز الاجتماعية ، تقف حائلا فى وجوه الملوّنين ، بحجة أن أعمال البناء وقف على البيض ذوى المؤهلات الفنية ، وليس من حق السود أن يقوموا بالأعمال الفنية ، بل ليس من حقهم دخول المدارس الفنية ليتأهلوا لأداء تلك الأعمال فى المستقبل !

وثمة مشكلة أخرى ، هى : هل من سبيل إلى وقف طوفان الهجرة السوداء التى تتدفق على المدن ؟ والرد على ذلك أن الزنوج لا يتركون مساقط رءوسهم طواعية وإيثاراً لسكنى المدن ، وإنما تدفعهم الحاجة إلى البحث عن لقمة العيش حيث وجدت ، فإذا شاءت السلطات المركزية أن توقف هذا التيار حقاً فما عليها إلا أن تزيد من رقعة ( المعازل ) التى

تضييق بمن فيها ، وأن تشجع الزراعة وتنهض بوسائلها ، وتقدّم إلى السود المعونة المادية والفنية ، كما تفعل مع المزارعين البيض ؛ وأن تنشىء الصناعات الريفية ، على أن تكون دعائمها المواد الأولية التى توجد فى كل إقليم ؛ وبذلك تتوافر أسباب العيش الكريم لسكان هذه المعازل ، فلا يبرحونها ولا يتشردون خارج حدودها فيزيدون الأزمة فى المدن شدّة وحدّة .

وقد يقال إن الحكومة تبذل بعض الجهود على قدر ما تسمح به اعتمادات الميزانية ، ولكنها حجة واهية ؛ والحقيقة أن أصحاب المناجم ذوى النفوذ ، هم الذين يضعون العقبات فى سبيل النهوض بحالة السكان الزنوج ، حتى لا ينضب معين الأجراء الذين يقنعون بالدافق فى سبيل العيش ، ولو فى جحيم المناجم . . .

وهذا الدافع الخفى هو الذى يحول دون إنشاء المدارس فى المعازل السوداء ، حتى لاتتنور العقول فيثور العبيد فى وجوه السادة . . .

ويتضح من الإحصائيات الرسمية أن ٢٠ ٪ من الأطفال السود فقط ، هم الذين يتعلمون مبادىء القراءة والكتابة ، وواحداً من كل ألف تتاح له فرصة التعليم الثانوى أو الفنى ، حتى إذا تقدم العامل الزنجى إلى المنجم أو المصنع ، ظل طوال حياته يزاول الأعمال الدنيا ، لقلة ثقافته وضعفه الفنى !

وقد أخذت بعض المجالس البلدية تنزل عن غلوائها أخيراً ، فألحقت بلدية جوهانسبرج عدة مئات من السود السعداء الحظ بالمدارس الفنية ، وبعد تخرجهم دبّرت لهم أعمالا فى المصانع والمناجم تتفق مع مؤهلاتهم ، ولكن بقى إلى جانب هؤلاء المحظوظين القلائل ، مئات الألوف من بنى

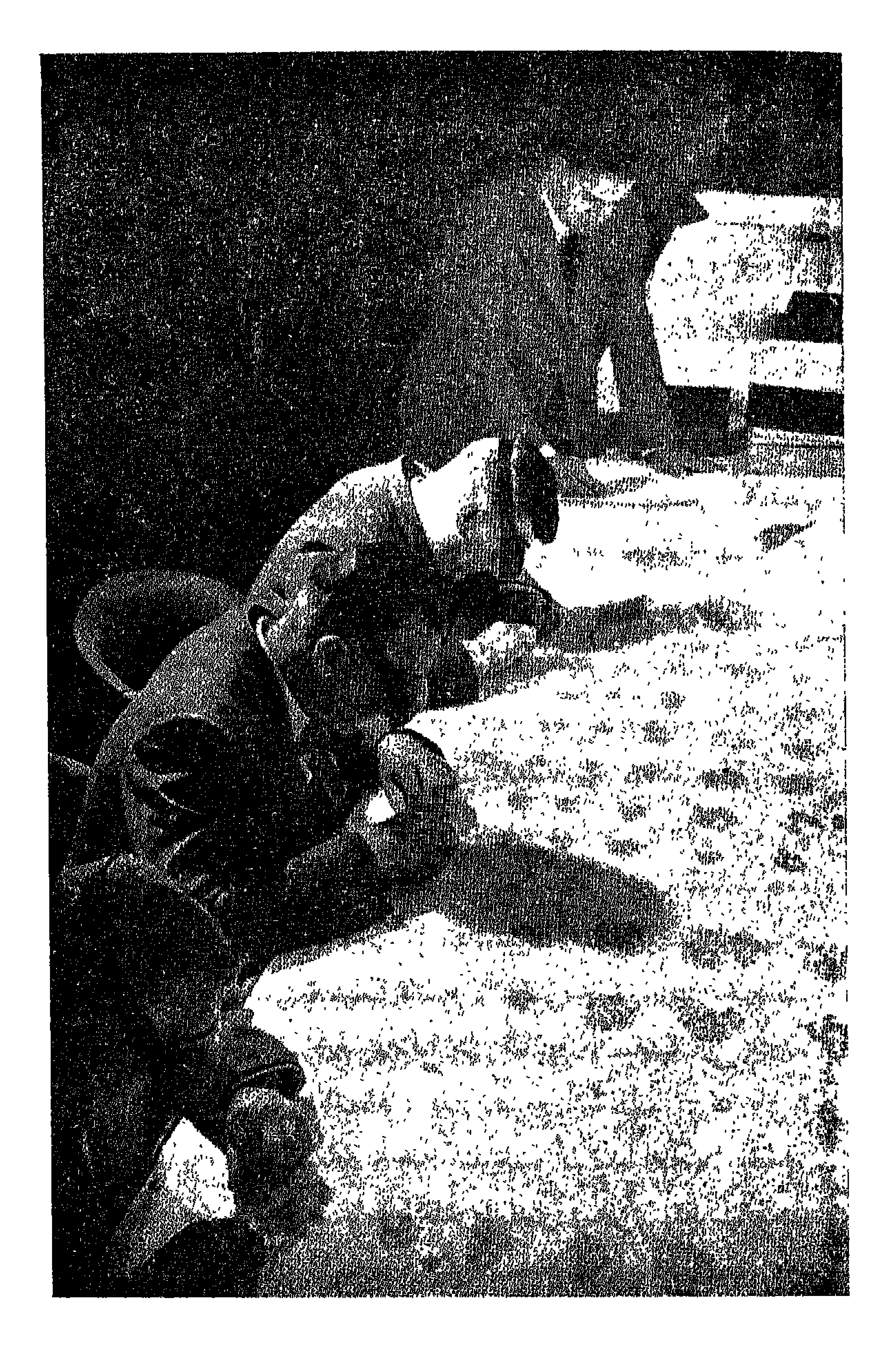
جلدتهم يعانون شظف العيش ، ويرسفون فى أغلال الذل ، ويقفون على أبواب المدارس فتوصد فى وجوههم ، بسبب القوانين الوضعية الجائرة التى تعقد مشاكل الاتحاد وتنذره بأوخم العواقب

وننتقل بعد ذلك إلى الصناعات التى شهدت النور إبان الحرب الماضية وما زالت تتعثر فى طريق النماء والازدهار

لقد كانت مدينة (إيسكور) القريبة من بريتوريا ، نواة صناعة صهر الحديد قبل الحرب الأخيرة ، ثم نشأت على مقربة منها مدينة صناعية جديدة ، على نمط المدن الأمريكية الصناعية ، وبنيت فيها مساكن للعمال البيض والسود تتوافر فيها جميع وسائل الراحة . . .

ولما كانت مقتضيات العمل تتطلب المزيد من الأيدى العاملة ذات الثقافة الفنية ، فقد اتجهت إدارات هذه المصانع إلى تجنيد الأهالى السود والملونين وإلحاقهم بالمدارس الفنية ، حيث تخرج عدد كبير منهم وأظهروا كفاءة نادرة فى الأعمال التى أسندت إليهم . وقد ارتفعت أجورهم وارتفع تبعاً لذلك مستوى معيشتهم ، وبذلك توافرت للسوق الداخلية طبقة جديدة من المستهلكين ، لم يكن لها أثر من قبل ، فترتب على ذلك بطبيعة الحال زيادة فى الإنتاج ، ومع الإنتاج يأتى الرخاء القومى الذى يعم أكبر عدد من السكان

وقد كانت هذه النتائج الواضحة الملموسة الأثر ، برهاناً عملياً يؤيد رأى ذوى الآفاق الواسعة والاتجاهات الحرة فى الاتحاد ، الذين يرون أن السياسة العنصرية والتضييق على الملونين تسىء إلى أصحاب المصالح



البيض ، يختبرون قطع الماس ، بعد استخراجه من مناجمه فى الترنسفال

الاقتصادية فى الاتحاد أكثر مما تنفعهم ، وأن سياسة المماطلة والتسويف قد طال أمدها ولم تعد مجدية ، فجدير بأولى الأمر أن يواجهوا أسس المشكلة فى صراحة وشجاعة ، وأن يعترفوا بنقابات العمال السود أسوة بنقابات البيض ، وأن يتيحوا لهم فرص الترقى ليشاركوا فى الإنتاج وفى الاستهلاك جميعاً ، فيستفيدوا ويفيدوا ويتحقق بهم الرخاء العام !

ويشير أصحاب هذا الرأى على الحكومة بأن تلغى جواز الانتقال ، وألا تسمح بعقد العمل الذى يحرر من صورة واحدة ، وأن تفتح أبواب المعاهد والمدارس الفنية أمام الأهالى ، حتى يتاح لهم شغل المناصب التى تتطلب كفاءات فنية ، فترتفع تبعاً لذلك أجورهم ، فيرتفع مستوى معيشتهم وقوتهم الشرائية . . .

وجملة الرأى أن تعمل الحكومة على تبديد السحب القائمة التى تتجمع فى الأفق وتنذر بشبوب العاصفة الهوجاء . . .

وعليها أن تواجه الدعاية الشيوعية التى تبث سمومها بين طبقات العمال ، السود والبيض على السواء ، وإن كانت الشيوعية لم تنفذ بعد إلى البرلمان . . .

وقد صرحت السيدة هيلدا واتس ، عضو مجلس بلدية جوهانسبرج بأنه ما دام الملونون والسود لم يحصلوا على الحقوق السياسية التى يتمتع بها البيض فى ظل دستور الاتحاد ، فلن تنفرج أزمة المساكن ، ولن تحل مشاكل التعليم والصحة العامة ؛ ومن هنا يجب أن تبدأ الحكومة العمل . . .

ونحن نتفق مع السيدة عضو المجلس البلدى فى الرأى ، ولكننا نتساءل : من ذا يجرؤ على المطالبة بمنح هؤلاء التعساء حقوقهم السياسية ، أو على

الأقل الإصلاحات الناجزة التي يشير بها ذوو العقول الراجحة من الأحرار بعد أن آلت مقاليد الحكم إلى الحزب الوطني الذي يتزعمه الدكتور مالان؟

لقد كانت نتائج الانتخابات التي أجريت في ٢٨ مايو ١٩٤٨ ، مثار دهشة العالم لا سيما الإنجليز ؛ فقد أصبح للوطنيين ( أنصار مالان ) ٧٠ مقعداً في البرلمان .

وللحزب الاتحاد ( أنصار سمطس ) ٦٥ مقعداً
وللحزب الأفريقيين الجديد ٩ مقاعد
وللحزب العمال ٦ «

وكلهم من البيض ، ليس فيهم واحد من أهل الوطن الذي ينتسب إليه هؤلاء جميعاً بالباطل !

ومما يجدر ذكره أن دعامة الحزب الوطني لا تستند إلى تأييد البوير وحدهم ، بل إن من مؤيديه عدداً كبيراً من الإنجليز ، وعلى العكس من ذلك ظل فريق من البوير على ولائهم للجنرال سمطس ، في صفوف حزب الاتحاد . . .

ولعل القارىء لم يزل يذكر برنامج الحزب الوطني كما بسطه « ستزيدوم » ساعد دكتور مالان الأيمن ، وهو يقوم على أساس عداء الإنجليز والسود واليهود جميعاً ، والنزوع إلى العزلة في السياسة الدولية ، كما ذكر أن الحزب يزمع إذا ما آل إليه الحكم ، أن يتبنى في جنوب أفريقيا نظام الجمهورية النازية ، فيعمل من وراء ستار على استبعاد العناصر الإنجليزية واليهودية من أراضي الاتحاد ، والتشدد في سياسة استعباد

الملونين وزيادة الضغط على حرياتهم ، حتى لا ينضب المعين الذى تتزود منه المناجم والمصانع بالأيدى العاملة ذات الأجور الضئيلة !

وقد أعلن ستريدوم فى حديثه ذاك ، أن الحزب ينوى تأميم مناجم الذهب والمصانع المختلفة التى تعتمد على رءوس الأموال الإنجليزية ، وبذلك ينصرف الاتحاد عن بريطانيا ويتجه بكلياته نحو الولايات المتحدة ، التى عرفت حكومتها كيف تكتسب مودة الاتحاد . . .

هذه هى السياسة المرسومة من قبل إجراء تلك الانتخابات ؛ وبعد فوز الحزب الوطنى فيها بتلك الأغلبية الضئيلة ، ساد الاعتقاد بأن أعضاء الحزب الأفريقى الجديد — وليس بينهم أفريقى أصيل واحد ! — سوف يؤازرون سياسة الوطنيين أنصار مالان ؛ فليس بين الحزبين من خلاف إلا على الأشخاص ؛ ولكن النتائج جاءت بما لم يكن فى الحسبان ؛ فقد تم التقارب بين النواب التسعة الأفريقيين وأنصار سمطس ، حتى قيل إن زعيمهم هافنجا ، خليفة الجنرال هرتزوج ، على استعداد للتعاون مع حزب الاتحاد الذى يرأسه سمطس . . .

والمعروف أن الجنرال هرتزوج ، برغم هزيمته غير المتوقعة فى الانتخابات ، لم ينسحب من المسرح السياسى ، ولم يعتكف فى مزرعته النائية بولاية الترانسفال كما تصور بعض الناس ، ولم يرع سنه المتقدمة ، التى بلغت الثمانين ، بل مضى فى كفاحه السياسى خارج البرلمان ، إلى أن نزل له أحد مريديه عن مقعده فى المجلس ، فاستوى فيه بعد ثلاثة شهور من هزيمته فى الانتخابات العامة ، وما لبثت الأوضاع أن تغيرت ، فأصبح

زعيما للمعارضة ، يناوىء كل مشروع تتقدم به حكومة الدكتور مالان ، عدوه السياسي اللدود

ثم ما لبث أن قام بجولة فى أنحاء ولايات الاتحاد الأربع ، ووقف بين « البيض » خطيباً ، يندد بالدكتور مالان ، ويؤكد أنه لن يستطيع المضى فى الحكم لما له من أغلبية ضئيلة ، فيجب إجراء انتخابات جديدة تفصل بين نزعة التجديد ونزعة التعصب الأعمى والتورط فى المشاكل المزمنة . . .

ولا شك أن المنافسة بين الحكومة والمعارضة لتحقيق مصالح البلاد الحيوية ستكون على أشدها لاستمالة الرأى العام واكتساب أصوات الناخبين وليس فى مقدور الحكومة أن تخرج عن الدائرة المفرغة من المشاكل التى يتردى فيها البلد ، إلا عن طريق التعجيل باتخاذ التدابير التى ذكرناها من قبل ، ونعنى بها تخفيض الضرائب الضخمة المفروضة على أرباح مناجم الذهب ، وتبلغ نسبتها ٦٢ ٪ من صافى الأرباح ، والنزول عن نصف الضرائب التى تبهظ كاهل الصناعات المختلفة . . .

وعلى الملاك الإقطاعيين وكبار المساهمين فى شركات المناجم ألا يسترسلوا فى غيهم ، وأن يكفوا عن طغيانهم وأثرتهم ، فينزلوا عن جانب من الأرباح الضخمة التى تعود عليهم ، وحسبهم ما يتمتعون به من أسباب البذخ والرفاهية ؛ فقد طفح الكيل وبدت فى الأفق نذر الإعصار الهائل الذى يوشك أن يجتاح القصور الشاهقة والبروج المشيدة ، ليقتلع جذور السادة ويرميهم أشلاء فى الفلوات . . .

ولو أن جهوداً صادقة قد بذلت فى سبيل إصلاح الأراضى البور ، وطبقت أساليب الزراعة الحديثة ، لازدادت المحاصيل وتوافرت لقمة العيش لكثير من البطون الخاوية . . .

ولو أن الصناعات الريفية أنشئت ، لاتسع المجال أمام كثيرين من الأيدى العاملة وفاض الخير على سكان المناطق النائية ، وتبع ذلك بطبيعة الحال انتشار العلم بين الطبقة الدنيا ؛ والعلم سلاح بتار يقضى على المرض والفقر جميعاً . . .

ولو أن الحكومة قدّمت بعض العون لشركات البناء ، لشرعت فى إقامة مبان صحية ، تتوافر فيها وسائل الراحة ، وتنفذ إليها أشعة الشمس ، ويتخللها الهواء ، على أنقاض الأكواخ الحالية التى تعتبر مباءة الأمراض ووكر الرذائل والشذوذ الخلقى ؛ على أن يتولى عملية البناء عمال من البيض والسود الذين يتخرجون فى المدارس الصناعية ، وعلى أن تلغى قوانين الحواجز الاجتماعية والتفرقة العنصرية ، فتتاح فرصة العمل للجميع على قدم المساواة . . .

ونتيجة لذلك يزداد الدخل القومى ، وتتلاشى روح الكراهية الكامنة فى نفوس المظلومين من ضحايا الاستغلال الأوربى الدنىء فى تلك البلاد .

هذا هو الحلم الذى يداعب فريق المتفائلين فى الاتحاد ؛ ويقول هؤلاء المتفائلون إنه لن تنقضى عشرة أعوام بعد تنفيذ ذلك البرنامج ، حتى تحل جميع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التى تواجه البلد فى الوقت الحالى ، وحتى يحل الوئام محل العداء بين الأوربيين وغيرهم من العناصر

الملوّنة، فيعمل الجميع جنباً إلى جنب ، بقلوب عامرة بالحب ، في سبيل الخير العام للبلاد ، ورفاهية الشعب بمختلف طبقاته . . .

ولكننا نزعم أن هذا الحلم لن يصير حقيقة ملموسة ، قبل إلغاء قانون الحواجز الاجتماعية ، وتنفيذ الإصلاحات التي عرضنا لها من قبل ؛ فهل الحكومة ماضية فى هذا الطريق ؟ إن الدلائل تشير إلى أنها ماضية فى غير هذا الاتجاه ؛ فقد أعلن الدكتور مالان على رءوس الأشهاد ، أنه عدل عن مشروع التوجيه الحرفىّ للأهالى ، وأنه إذا ما أصرت هيئة الأمم المتحدة على التدخل فى شئون الاتحاد الداخلية ، فإن حكومة بلاده ستنسحب منها غير آسفة عليها ؛ وتردد الهمس وتتذاك فى الأوساط المطلعة بأن عبارات الرئيس جوفاء ، ولا تعدو أن تكون طنطنة لإنقاذ الهيبة ؛ والواقع أنه لا يستطيع المضى فى الطريق الذى زعم أنه اختطه لنفسه . . .

والأمنية العزيزة الأخرى التى تداعب خيال فريق كبير من أعضاء حزب الاتحاد، وعلى رأسهم الجنرال سمطس، هى تكوين كتلة اقتصادية جامعة ، تضم جنوب غرب أفريقيا ، وروديسيا الشمالية والجنوبية ، وكينيا والمستعمرات الإنجليزية الاستوائية ، على صورة اتحاد فيدرالى شامل ، تترامى أطرافه من خط الاستواء إلى طرف القارة الجنوبى ، وتمتد أراضيه من الشرق إلى الغرب بين المحيطين الهندى والأطلسى ، تحت إشراف اتحاد جنوب أفريقيا وإدارته . .

ويقال إن رجال الأعمال فى كل من روديسيا الشمالية والجنوبية ، الذين يرجع تاريخ نشاطهم إلى ما قبل ميلاد الاتحاد ، والذين يتجهون

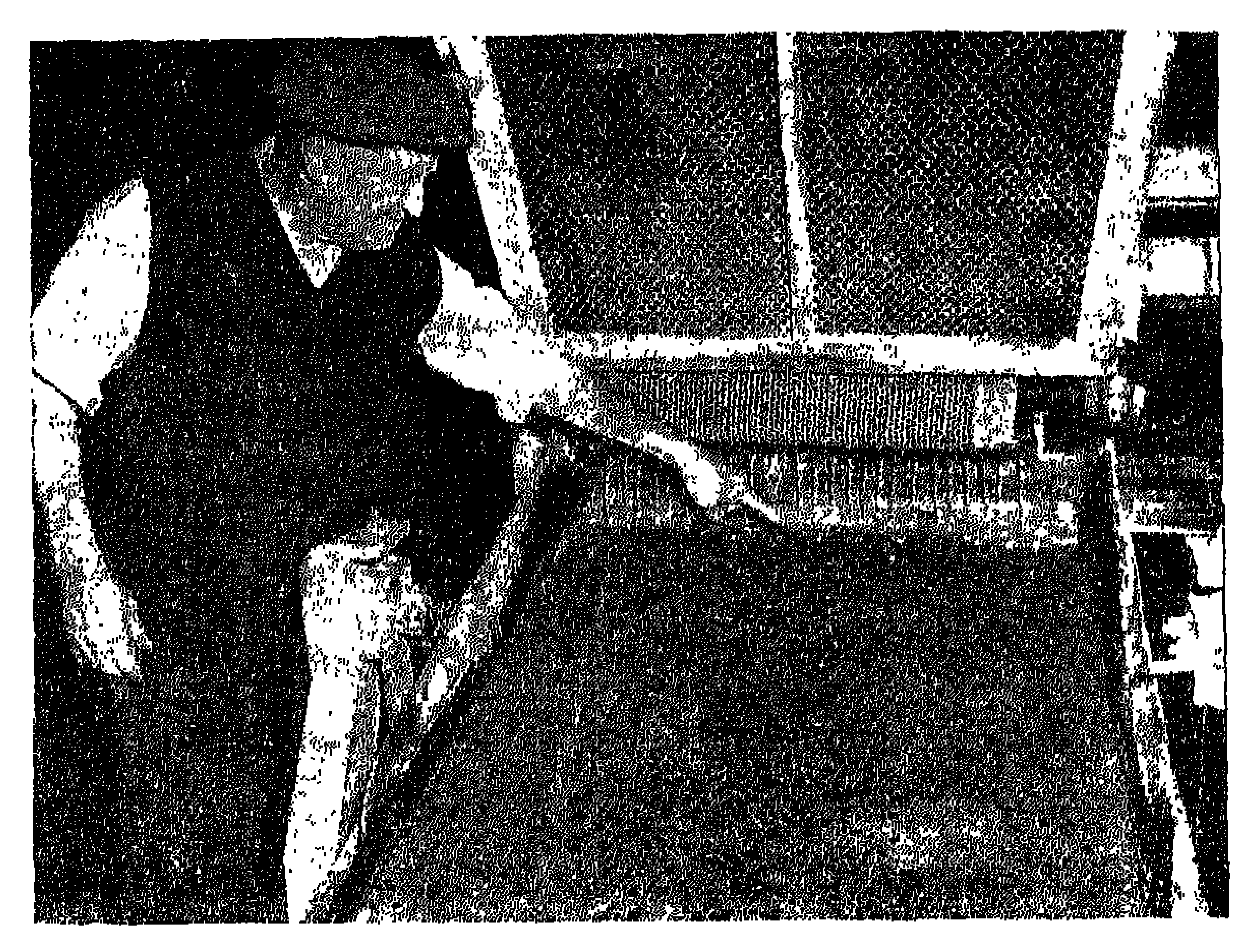
بأبصارهم نحو جوهانسبرج ، يحبذون الفكرة ويؤيدون الاتحاد الفيدرالى بصفة مبدئية ؛ ولكنهم ليسوا وحدهم أصحاب الحق فى تقرير المصير ؛ بل إن أغلبية سكان هذه المناطق ينظرون بعين الريبة والحذر إلى الأفريقيين البوير ، ويخشون نزعتهم التعصبية وكرههم للأجانب ، ومذاهبهم السياسية والاجتماعية التى تتعارض مع روح التسامح السائدة حتى الآن فى المناطق المذكورة . . .

والسادة الإنجليز ، أصحاب الأمر والنهى هناك ، هل يقرون هذا الاتجاه ويوافقون على تأليف الاتحاد الفيدرالى المنشود ، وما يستتبع ذلك من تقلص نفوذهم فى أفريقيا بعد أن أفلتت آسيا من أيديهم أو كادت ؟

هذا ما لا يستسيغه العقل . . .

ثم هناك أيضاً مشكلة أفريقيا الجنوبية الغربية ، التى كانت من قبل مستعمرة ألمانية ، ثم وضعت فى أعقاب الحرب العظمى تحت انتداب الاتحاد ويسعى الآن لضمها إلى أراضيه ، فى حين تصر هيئة الأمم المتحدة على استرجاعها لتكون تحت إشراف مجلس الوصاية التابع لها . . . فماذا يكون وضعها بالنسبة لهذا الاتحاد ؟

ومن ذلك يتضح أن هناك عدة عقبات تحول دون تأليف الاتحاد الفيدرالى ، الذى يشمل الأراضى الأفريقية الواقعة جنوبى خط الاستواء ، والذى يداعب خيال فريق من المتفائلين فى اتحاد جنوب أفريقيا .



تنقية الماس . . . بتمريره فى الماء

# عبيد . . . وسادة !

ألممنا فى بعض ما سبق من هذا الكتاب بالحالة الاجتماعية فى « اتحاد أفريقيا الجنوبية » ؛ فالآن نريد أن نرسم صورة واضحة لحياة مختلف العناصر فى بعض بلاد الاتحاد ، والشعور الذي يخالج نفوس كل منهم ، سواء منهم الوطنيون الملوّنون ، والمستوطنون البيض على اختلاف عناصرهم ، من البوير النازحين الأوّلين إلى البلاد ، والفرنسيين الذين وفدوا بعدهم ليستوطنوا مثلهم ، والإنجليز الذين جاءوا بعد ذلك ليستوطنوا ويستعمروا فى وقت معاً . . .

إن كل عنصر من هذه العناصر يرى أنه صاحب البلاد وله فيها حق السيادة ، وكلهم — إلا صاحب البلاد الحقيقى — يستمتع من خيرات البلاد بما لا مطمع بعده لمستمتع ، ولكنه يطلب المزيد ؛ وأصحاب البلاد الحقيقيون هم وحدهم الذين لا يتمتعون من خيرات بلادهم بشىء ، ويلقون من الشظف فى العيش ، ومن الإرهاق فى العمل ، ومن الإذلال فى الحياة ما لا طاقة لبشر على احتماله . . .

ولكى يعرف القراء كيف يعيش هؤلاء وأولئك ، وكيف يفكرون ، فى البلد الذى أراد الله أن يكون جنة لغاصبيه وجحيما لأهله ، نثبت لهم فصلا بليغاً ، كتبه صحفى فرنسى ، زار « اتحاد جنوب أفريقيا » منذ عهد قريب ثم كتب يصف مشاهداته كما رآها بعينيه وأحسها فى ذات نفسه ؛ قال :

دعانى مسيو بريناك ، قنصل فرنسا بمدينة الكاب ، لزيارة بقعة

فرنسية بحت ، تقع فى قلب أراضى الاتحاد ، فلما اجتازت بى السيارة ضواحى العاصمة ، مررنا ببلدة ستيلنبوش ، أقدم بلاد الاتحاد بعد مدينة الرأس ، ومقر أكبر جامعة يتلقى العلم فيها أبناء أسر البوير العريقة ، وتلقى المحاضرات باللغة ( الأفريكالية ) المشتقة من الهولندية والألمانية .

وتعتبر هذه البلدة أحد معاقل المعارضة الوطنية المتطرفة ، التى تعادى كل ما يمت بصلة للإنجليز أو أهالى البلاد الملونين ، وما زال فيها الميدان الكبير الذى شهد ازدهار تجارة الرقيق الأسود قبل أن يصدر الإنجليز قانونا بتحريمها عام ١٨٣٤ .

وواصلت السيارة سيرها بنا إلى خارج البلدة ، عبر طريق متعرج تحفه أشجار القرو وتظلله ، ويرتفع رويداً رويداً حتى يبلغ قمة الجبل ، حيث تقع العين على منظر طبيعى ساحر ، منظر سهل منبسط مترامى الأطراف ، تكسوه حلة سندسية من العشب الغض ، ويتلوى فيه نهير صغير ، تجثم على ضفتيه جبانة بنيت شواهد قبورها من المرمر الأبيض الفاخر . . .

وقد سرت فى جنباتها أتصفح أسماء ساكنيها ، وعقدت الدهشة لسانى عند ما وقع نظرى على أسماء أصحابها ، فقد كانت أسماء فرنسية بحت ؛ ولما رأى صديقى القنصل أمارات العجب مرتسمة على وجهى ، ربت كتفى فانتشلنى من بحر التأملات الذى كنت غارقاً فيه ، وأشار إلى سفح الجبل الذى يشرف على الوادى ، فبدت لى عبارة ( فرنشن هاوك ) أى ركن الفرنسيين ، بأحرف ضخمة محفورة فى الصخر ؛ فتذكرت حينئذ أن هذا

الوادى هو الذى أنزح إليه واستقر فيه الرعيل الأول من المهاجرين الهيجونوت ، الذين طردوا من فرنسا على أثر اضطهاد البروتستانت ؛ وإذن فقد التأم شملهم فى هذا المكان ، حيث بنوا مدينتهم ، وتصاهروا فيما بينهم ، وتكاثروا ، دون أن يختلطوا بغيرهم من الإنجليز أو الهولنديين . . .

ولقد تساءلت عن مدى الآثار العميقة التى تخلفت عن هذا النفى الطويل الذى احتمله الفرنسيون المهاجرون ، فجاءنى الرد على لسان القومندان بينديرف ، أحد المهاجرين الفرنسيين الذين استوطنوا البلاد على أثر الهزيمة التى لحقت بفرنسا عام ١٩٤٠ . . .

فقد قال مرحباً بمقدمى : إن هذا اللقاء يسعدنى كثيراً ويثير فى أعماقى ذكريات عزيزة ، إذ يتيح لى فرصة الحديث عن وطنى الأصلى الذى أحن إليه حنين الأم إلى وحيدها المفقود . . .

قلت : إن شعور الفرح الذى يخالجنى لا يعادله إلا شعورى بالفخر لأنى وجدت فى هذه البقعة النائية عن بلادنا ، نفراً من المواطنين ذوى الثقافة الفرنسية الخالصة ، التى لم تشبها على مر القرون شائبة ، ولم يتطرق إليها مؤثر غريب !

ثم أعربت له عن رغبتى فى التعرف إلى بعض أحفاد الهيجونوت ، فوعدنى بتدبير هذا اللقاء ؛ وبعد عدة أيام دعيت إلى دار إحدى الأسر العريقة فى مزرعة كبيرة ، أطلق عليها أصحابها اسم إحدى المقاطعات الفرنسية ، مع عظم الفارق بين هذه المزارع وبين مثيلاتها فى فرنسا ، ولو جاز لى أن أقارن ، لقلت إنها أقرب شبهاً إلى الإقطاعيات الإنجليزية

القديمة ، فمبانيها وإن كانت على طراز هولندى خالص ، تشبه قصور النبلاء الإنجليز وقلاعهم ، والمزارع تنحدر من سفح الجبل إلى بطن الوادى ، وتحدّ رقعتها أشجار القرو الباسقة . ولكل بيت من بيوت هؤلاء الملاك حديقة غناء ، تنبعث منها روائح الزهور العطرة ، وتحوى أنواعاً من الأشجار الشرقية ، تلقوها هبة من شركة الهند إلى المستوطنين الأوائل . وعلى مسيرة مائة متر من المبنى الرئيسى ، تقع مبانى المزرعة ، فهذه حظائر البهائم ، وتلك مخازن الغلة ، وإلى جانبها أماكن معدة لحفظ الفاكهة ، وأخرى لعصير العنب وتقطيره . وهناك أبراج الحمام وأقفاص الدجاج والوز . . .

ولكن الأمر الذى يسترعى النظر ويثير الدهشة ، هو أنك لا ترى أثراً للمخصبات العضوية التى يحتفظ بها الفرنسيون فى مزارعهم عادة ، بل تجد عند هؤلاء القوم كل شىء نظيفاً منمقاً عليه مسحة من الأناقة . . .

ومن ميزات بيوت هؤلاء المهاجرين ، أنها ذات غرف رحبة ، تنفذ الشمس خلال نوافذها ، وتحلى جدرانها جلود الأفاعى الضخمة ورءوس الوعول وريش النعام وقد صبغ بالألوان الزاهية . . .

والآن ها هى ذى سيدة البيت ، ذات القامة الممشوقة والبشرة الوردية تقبل نحوى فى هالة من الشعر الرمادى ، وتضع فوق المائدة ( ألبوما ) يحتوى صور أسلافها ، فتقدمهم إلىّ قائلة :

السيدة س ، وكانت قبل زواجها تحمل اسم الآنسة ( جوبير ) ابنة عم الجنرال القائد الشهير جوبير ، أحد أبطال حرب البوير ،

ثم أشارت السيدة إلى الصفحة المقابلة وقالت : اقرأ بنفسك ما فيها ...
وكان فيها « بيير جوبير ، ٢٣ عاماً ، وزوجته إيزابو جوبير ، ٢٠ عاماً ، أبحر بهما المركب الشراعى ( الصين ) من مدينة روتردام ، وألقى مراسيه بميناء ( الكاب ) فى شهر مارس سنة ١٦٨٨ .

وأخذت أتخيّل مقدار ما عاناه هذان الزوجان أثناء تلك الرحلة التى استغرقت وقتذاك ستة شهور على الأقل ، تعرض فيها المراكب لشتى الأهوال والأخطار ، أخطار العواصف الهوجاء ، وأشد منها أخطار القراصنة المغيرين من سائر الأجناس ، ثم أخطار الأمراض التى تنشأ عن تكدس المسافرين ونفاد الأطعمة الطازجة وقلة مياه الشرب ، فما ظنّك بمياه الاستحمام !

ثم يسرد السجل أسماء الأسرة وتواريخ وفاتهم ، فتعود بى الذكرى إلى الأسماء التى شاهدتها محفورة على القبور ، وكلها أسماء فرنسية بحت ، لم يطرأ عليها أى تحوير أو تغيير . . .

ثم استفسرت من سيدة الدار عما إذا كان أجدادها قد صادفوا بعض الصعوبات حينما نزلوا بأرض جنوب أفريقيا ؟

فأجابت قائلة : كلا ، فقد قوبلوا بالترحاب ، فى أول الأمر على الأقل ، إذ كان الأمل معقوداً عليهم للنهوض بالبلاد ، إذ كان الفرنسيون معروفين بتخصصهم فى زراعة الكروم والزيتون ، وفى تقطير المشروبات الروحية وصناعة الخل ، ومن أجل ذلك اقتيدوا إلى هذا المكان . فلما رأوا جمال الطبيعة هنا ، ولمسوا خصب الأرض ودسم المرعى ووفرة المياه ، سجدوا لله حمداً وشكراً على ما أولاهم من نعمة جزيلة ، وما منحهم من أرض

يعيشون فيها ويمارسون شعائرهم الدينية فى سلام .

وقد تركت الشركة لهم حرية تقسم الأراضى ، وقدمت إليهم بالنسيئة أدوات الفلاحة ، وأخشاباً لبناء المساكن وحظائر الحيوان ، وعدداً من العبيد جاءت بهم الشركة من الأقطار الشرقية . . .

ولقد كان العمل شاقاً فى البداية ، إذ كان على المهاجرين أن يصلحوا الأرض ، ويقيموا لأنفسهم مساكن تحميهم من الوحوش الضارية التى تفد إلى أراضيهم من بطون الغابات القريبة ؛ وكان عليهم فوق ذلك أن يدفعوا عن أنفسهم شر رجال ( الهوتنتوت ) ، ويحافظوا على غلة الأرض من غارات البانتو الجائعين . . .

وفى سبيل الكفاح من أجل البقاء ، تغلب هؤلاء القوم على الصعوبات كافة ، بقوة الإيمان والإقدام والصبر ، وما لبثوا طويلا حتى ازدهرت أحوالهم واستقرت .

وكانت الشركة تتقاضى فى أول الأمر نصف المحاصيل ، ثم تطورت الأمور وصارت الضرائب تدفع نقداً على مبيعات اللحوم والقمح والنبيذ . . .

ومضت سيدة الدار فى حديثها قائلة إن أسلافها الأولين حينما قضوا نحبهم ، تركوا وصية تحتوى على أسماء وحدود عدة مزارع ، أهمها تلك المزرعة التى يعيشون الآن من غلتها . . .

قلت : إذن فقد كانوا رحمهم الله فى نعيم .

قالت : ومتى كان فى الدنيا نعيم ؟ إليك أوراق الأسرة تروى مأساة

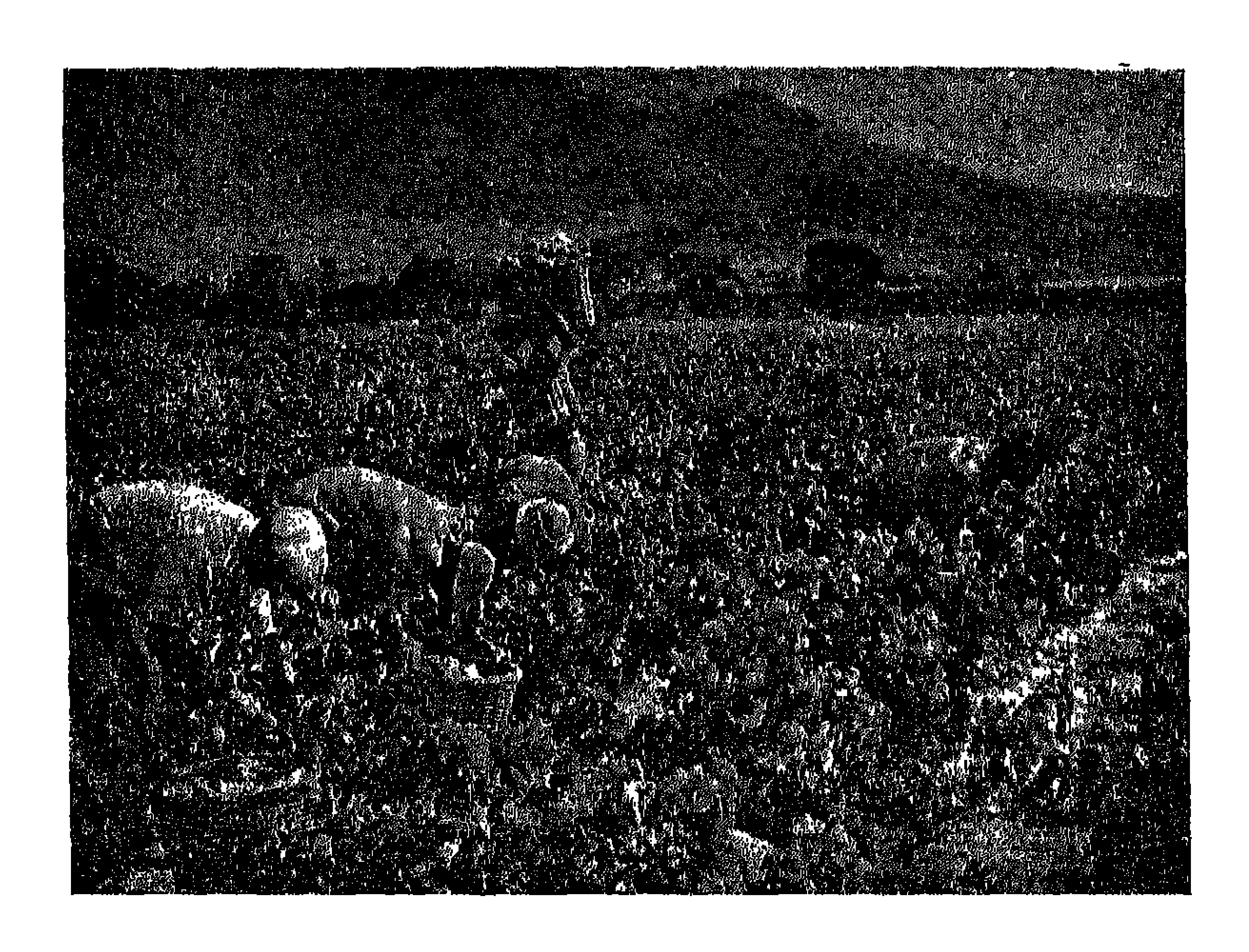
أجدادنا الأولين على أيدى السادة أولى الأمر فى الشركة صاحبة النفوذ والأمر والنهى . . .

أجل يا سيدى لقد حاولت الشركة أن تفنى شخصية الهيجونوت ، وتلغى عقولهم ، وتنسيهم ديانتهم ، وتطيح بمقدساتهم وتقاليدهم وعاداتهم ولغتهم ؛ فكان بينهما صراع دام عشرين عاماً ، وذاقوا فيه الأمرين من عنت السلطات وطغيانها ؛ ولم يكن لهم إلا راع واحد وكنيسة صغيرة واحدة ليس فيها أجراس ، فعند إقامة الصلاة كان أجدادنا يوقدون على مقربة منها ناراً لدعوة المصلين الآخرين . ولما مات الراعى الفرنسى ، استبدلت به السلطات راعياً هولندياً لا يعرف من الفرنسية كلمة واحدة ، فتوالت العرائض والشكاوى على الشركة ، وتوسل القوم إلى مديريها أن يوفدوا إليهم قسيساً فرنسياً ، فكان الرد : على الصغار أن يتعلموا الهولندية ، أما الكبار فسيموتون عاجلا أو آجلا ! »

وفى الوقت نفسه صدرت تعليمات الشركة إلى نظار المدارس بأن يقتصر تعليم النشء على اللغة الهولندية ، كما استخدم مديروها جميع المغريات لحمل الشباب الفرنسيين على الزواج من هولنديات أو ألمانيات ، وقيل فى وقت من الأوقات إن مجرد النطق بكلمة فرنسية فى الأماكن العامة كان يقتضى الحكم بالإعدام !

قلت : وكيف كانت المقاومة ؟

قالت : وهل من سبيل لمقاومة مثل هذا الطغيان ؟ لقد أدت هذه السياسة الشنيعة إلى أن أحفاد المستوطنين الأوائل أصبحوا لا يعرفون كلمة واحدة من لغة وطنهم الأصلى !



مزارع الكروم فى الكاب

قلت : ولكنك ذكرت فى سياق حديثك أنك سافرت إلى أوربا ومكثت فيها سنتين أو ثلاثا ؛ فهل زرت فرنسا ؟

فاحمر وجهها خجلا وقالت : كلا بل قضيت هذه المدة فى مدينة درسدن بأحد معاهد الموسيقى .

قلت : إذن فقد ضاعت قوميتكم ولم يبق لكم منها إلا الأسماء الفرنسية

قالت : وهل كان لنا حيلة فى دفع ذلك ؟ . . .

ولم يشأ رب الدار أن تفوت هذه الفرصة دون الإدلاء برأيه ، بعد أن لزم الصمت طوال الحديث ، فاعترض قائلا : ولمَ لا يا سيدى ؟ إننى (أفريكانى) دما ولحماً . . . وإنى لفخور بذلك !

قالها صريحة ، مع أنه ، كقرينته ، ينحدر من أسرة فرنسية عريقة ، نزح أسلافها إلى جنوب أفريقيا ، فراراً من الاضطهاد ، وهو يحمل اسماً فرنسياً خالصاً ، وبالرغم من ذلك لا ترى فرقاً فى الخلقة والتكوين بينه وبين سائر الفلاحين البوير ؛ فهو عريض المنكبين ، ذو بشرة مشربة بالحمرة القانية ، يستعين فى حديثه بالإشارات ، ويرتدى ثياباً فضفاضة ، شأنه شأن أهالى منطقة ( فرنش هاول ) أجمعين .

ثم استطرد يقول وفى نظراته شىء من التحدى : إنكم معشر الصحفيين ترموننا بالتعصب الأعمى ، واستذلال الزنوج ومعاملتهم معاملة العبيد بل السوائم . . .

قالت قرينته مؤيدة : وقد افترى البعض على أولادنا فقالوا إنهم يغررون بالفتيات الزنجيات ، وعلم الله إنها لتهمة رخيصة ، فديننا لا يحرم

الزواج بالفتيات الملوّنات فحسب ، بل يحرم مجرد العلاقة الجنسية ، ولو جرؤ شاب على مثل هذه الجريمة لطرد من المجتمع شر طردة ، ولنبذته الجماعة نبذ النواة ؛ أما تهمة استعباد الزنوج التى يحلو لكم أن ترمونا بها ؛ فدعنى أؤكد لك يا سيدى أننا ، حتى فى الزمان الماضى عند ما كان الرق مباحاً ، كان دأبنا رعاية العبيد وأخذهم بالرفق واللين ، واتقاء الله فى معاملتهم ؛ إذ كانوا يعتبرون أولاداً لنا نجازيهم كما نجازى فلذات أكبادنا فى هوادة ورحمة ، فقد يولدون ويموتون فى كنفنا ، ويشاطروننا الأفراح والأحزان ، وكأنهم أفراد من الأسرة ؛ ولما صدرت قوانين منع تجارة الرقيق وفك رقاب العبيد ، آثر كثيرون منهم البقاء فى الأرض التى ولدوا فيها وشبوا وترعرعوا جيلا بعد جيل . . .

ثم توقفت السيدة برهة عن الحديث وارتسمت على شفتيها ابتسامة مرّة ، ثم استأنفت حديثها قائلة : وما كان هدف الإنجليز من وراء إلغاء الرق إلا إرهاق البوير وإنزال الخراب بهم ؛ ومن براهين ذلك أن القانون حدد التعويض الذى يدفع لكل سيد أعتق عبداً ، ولكن الحكومة الإنجليزية فسرت هذا القانون على هواها ، فاشترطت أن يدفع التعويض فى لندن ، وهذا ، كما ترى ، يعد من قبيل التعجيز ، إذ كان يتعين على صاحب الحق أن يركب البحر خلال عدة شهور ، وأن يدفع أجر الرحلة ، فضلا عما يتحمل فى سبيل ذلك من أخطار ومتاعب !

هكذا كانت وما زالت سياسة الإنجليز ، ظاهرها حافز إنسانى رحيم ، وباطنها رياء والتواء وخداع ؛ والنتيجة أن أسلافنا ، بعد أن أعيتهم

الحيلة ودب اليأس في نفوسهم وساءت أحوالهم ، نالوا دراهم معدودات في نظير التنازل عن حقوقهم .

وقد لا تعلم يا سيدى أن الأجر اليومى للعامل الملون هنا يبلغ خمسة شلنات ، وله الحق فى قطعة أرض تغل عليه ألواناً من الخضر والبقول ، أما الفواكه فله أن يأكل منها ما يشاء ؛ ولك يا سيدى أن تجوب أنحاء المزرعة وتسأل أى عامل من الملونين عن أحوال معيشتهم ؛ وإنى لعلى ثقة من إجابته ، فستسمع عن فريق ادخر بعض المال واشترى البيت الذى يعيش فيه مع أسرته ، وسترى بعضهم يقود سيارة نقل هو مالكها ، وستلمس الفرق الشاسع بين معاملتنا لهم ومعاملة الإنجليز وأشباههم لبنى جنسهم فى المصانع والمناجم . . .

وقد زعمت حكومة سمطس أنها ستمنح حق التصويت للملونين ، وذلك لكى تكفل لنفسها مزيداً من الأصوات فى الانتخابات ، ولكننا سنعمل كل ما فى وسعنا لإحباط هذا المشروع ، فلن نقبل المساواة فى الحقوق بيننا وبين الأهالى الملونين ، فتشتد سواعدهم ذات يوم ويطردوننا شر طردة من هذه الأرض التى رويناها بدمائنا ودموعنا ، واستنبتنا زرعها بعرق الجبين ، وقاسينا العذاب والحرمان ، ولاقينا الشدائد فى سبيل إصلاحها . . .

هذه الأرض يا سيدى لن تكون للسود أبداً . . .

هكذا قالت ، وكانت الكلمات تنطلق من فمها ، كالحمم التى تنفثها البراكين ؛ وكان الغضب يملك عليها مشاعرها ، ويدمى فؤادها وهى

تقول مسترسلة : وقد أنشأنا المدارس لأولادهم يتلقون العلم فيها على أيدى أساتذة من الملونين ، وبنينا لهم كنائس يعظ فيها رعاة من بنى جلدتهم ؛ أفلا يستحون ويقفون بعد ذلك عند حدودهم ؟

ولقد لزمت الصمت ، فما كان لى أن أقف فى وجه هذه الثورة العارمة ، أو أعترض على أفكار تأصلت فى النفوس ولا يمكن اقتلاعها

وبعد قليل هدأت الثائرة ، وعادت السيدة إلى اتزانها ووقارها ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة عذبة ، ثم قدمت لى كأساً من النبيذ ، قائلة إنه من عصير كروم ذلك الموسم ، وأضافت : إن هذا الوادى السعيد اشتهر منذ قرنين بالفاكهة والكروم ، ومنتجاته تصدر بكثرة إلى مختلف أنحاء العالم ، ثم ذكرت أن خصوبة هذه الأرض هى السبب فى تعلق المستوطنين بها وعدم هجرتهم إلى غيرها كما فعل غيرهم من المهاجرين الأوائل ؛ بل استقروا فيها وتكاثروا واحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم الأصلية .

وقالت السيدة إن محصول الكروم وحده يدر على الأسرة إيراداً سنوياً قدره ألف جنيه ، كما يباع البرميل الذى تبلغ سعته ستمائة لتر بما يتراوح بين سبعة جنيهات وثمانية فى السوق الإنجليزية والأمريكية على السواء

ثم خرجنا إلى الشرفة ، وشاهدنا العمال السود يتسابقون على رنين جرس كبير معلق بين شجرتين ، إلى الحظيرة الرئيسية ، حيث وقف أحدهم يوزع عليهم الشراب ، فقالت السيدة : إن لكل واحد منهم الحق فى لتر من النبيذ يومياً ، يعطى له على أربع دفعات ، ولو تركت لهم الحرية

لشربوه جرعة واحدة ، ولأعجزهم ذلك عن العمل .

ومما يؤسف له أن هؤلاء الزنوج يعبدون الخمر ، فإذا ما حل يوم السبت وتقاضوا أجورهم ، أنفقوا الجانب الأكبر فى شراء المشروبات واحتسائها طوال يوم الأحد ، ولا داعى للقول إن النشوة تعوقهم عن الإنتاج طوال يوم الاثنين . . .

قلت : تلك آفة العمال فى كل البلاد !

قالت : وفيما عدا هذا الداء العضال فإن قدرتهم على العمل ونظافتهم تفوق كل وصف فهم يغسلون أسنانهم بعد كل وجبة ، ولو أتيحت لك فرصة زيارة بيوتهم ، لألفيتها نظيفة أنيقة . ولهم فى رصف أرضيتها طريقة عجيبة يخيل لك أنها والأسفلت سواء .

* * *

وفى صبيحة يوم الأحد كان السكون يسود المزرعة ، وقد جلسنا نتناول طعام الإفطار فى الشرفة الكبرى ، ودار الحديث مرة أخرى حول العمال ، فقالت ربة الدار : لا تحكم على ظروف العمال الزراعيين الآخرين بما تراه وتلمسه فى هذه المزرعة ، فإن ولاية الكاب تعتبر أكثر ولايات الاتحاد ازدهاراً ، كما يمكن القول إن الأفكار المتحررة من قيود التقاليد البالية قد تسربت إليها ، فجعلت السود هنا أقل تعصباً وأكثر هضماً لمقومات الحضارة من بنى جنسهم فى سائر الولايات ؛ وقد لا تعلم أن عدد المزارع فى مختلف أرجاء الاتحاد يزيد على مائة ألف ، يعيش فيها ٦٠٪ من المواطنين الأوربيين ، أغلبهم ينحدرون من أصل هولندى ،

ويتكلمون ( الأفريكانية ) .

وكان الأوربيون فى الأصل يملكون إقطاعيات كبيرة منحتهم إياها الحكومة ، أو آلت إليهم بعد غزوات موفقة ؛ فلما تكاثر النسل تقاسموا الأرض جيلا بعد جيل ، فضاقت رقعة الملكيات وتضاءلت المزارع حتى بلغت مساحتها الآن :

٣٣٠٠٠ مزرعة تتراوح مساحة كل منها بين ١٥ و ٧٥ هكتاراً .

٢٥٠٠٠ مزرعة تقل مساحة كل منها عن ١٥ هكتاراً .

٨١٢ مزرعة تزيد مساحة كل منها على ١٥٠٠ هكتار .

ويوجد فى ولايتى الترانسفال والأورانج مناطق كبيرة لم تستغل بعد ؛ لعدم توافر وسائل الرى ، وقلة الآلات الزراعية الحديثة ، مما يستوجب تأسيس عدد من الجمعيات التعاونية الزراعية ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن طبيعة الأرض فى هذه المناطق من الوعورة بمكان ، عرفت ما يقتضيه استصلاحها من جهود جبارة .

ولئن كان الفلاحون البوير ، أحفاد المستوطنين الأوائل ، أشداء ذوى نشاط وعزم ، شديدى التعلق بالأرض التى يفلحونها ، ولكنهم أعداء لكل جديد مستحدث ؛ وهم إلى ذلك ذوو نزعات فردية ، ينفرون من كل اتجاه نحو التعاون ، ولذا نجد كثيراً منهم يقاسون الضنك ، مما يضطر الأبناء إلى هجرة مساقط رءوسهم سعياً وراء المناصب الحكومية ذات المرتبات الضئيلة التى يأبى شغلها ذوو الطموح من العناصر الطيبة ؛ ومن ثمة ترتفع أصوات النواب بالشكوى من زيادة عدد الموظفين سنة بعد

سنة ، بقدر ما يتضاءل الإنتاج ؛ يضاف إلى ذلك سوء معاملتهم للناس ، لا سيما الأجانب ، فالمعروف أن البوير قوم يكرهون الغرباء ويحذرونهم ؛ وقد لمست هذا بنفسي ، حتى اضطررت ذات يوم أن أشكو من الإجراءات العقيمة التي تتبع إزاء الأجانب عند دخولهم في أراضي الاتحاد ، فقيل لى يومئذ : إن لدينا من الأجانب عدداً وفيراً ، ونحن لا نريد المزيد ؛ وعلى السادة الغرباء أن يلزموا بلادهم ويقبعوا فيها !

وهناك عدد كبير من أبناء البوير الذين عجز آباؤهم عن إدخالهم الجامعات ، ينزحون إلى المدن الكبرى سعياً وراء الرزق ، فيجدون الأبواب دونهم موصدة ، وتضيق بهم سبل الحياة ؛ فلا تلبث صفوف العاطلين من فقراء البيض أن تزداد طولا وعرضاً !

وقد ذكرت فيما مضى أن عدد هؤلاء التعساء قد بلغ فى السنوات الأخيرة نحو أربعمائة فى مختلف أنحاء الاتحاد ، وأن مستوى معيشتهم لا يرتفع عن مستوى معيشة السود والملوّنين ، الذين تعتبر مشكلتهم أم المشاكل المعقدة فى جنوب أفريقيا .

هذا هو حال الأبناء ، أما الآباء فلولا المعونة المالية التى تقدمها الحكومة إلى الفلاحين سنويًّا ، لأعلن الكثير منهم إفلاسهم ، من جراء طبيعة الأرض ، والتزامهم الوسائل البدائية فى الزراعة ، وضيق السوق الداخلية بما يطرح فيها من محاصيل لا يمكن تصريفها لضعف القوة الشرائية مما يترتب عليه هبوط الأسعار وانهيارها .

والفرق كبير بين العرض والطلب ، أو بالأحرى : بين الثمن الذى

يتقاضاه الفلاح عن محصوله والثمن الذى يباع به هذا المحصول فى المدن ؛ ونضرب لذلك مثلا أن الفلاح ، خلال عام ١٩٣٥ ، كان يبيع كيس الدقيق الذى يزن مائة كيلو جرام بمبلغ ١٧ شلناً ( أى ما يساوى نحو ٨٥ قرشاً ) فى حين يدفع المستهلك فى المدن ثمناً لهذا الكيس ٦٣ شلناً ( أى ما يساوى بالعملة المصرية نحو ٣١٠ قرش ) فإلى من يذهب هذا الربح ؟

إلى شركات الاحتكار ، صاحبة الحول والنفوذ ، طبعاً ، فهى التى تسيطر على أسعار السلع عامة ، واللحوم بنوع خاص . . .

وإلى الوسطاء ، الداء الوبيل الذى يقصم ظهر المستهلك فى جنوب أفريقيا وغيره من بلاد العالم . . .

فإذا ذكرنا إلى جانب ذلك هؤلاء الملايين العشرة من الاهالى الذين يعانون شظف العيش وتكاد تنعدم قوتهم الشرائية ، بدت أمام أعيننا صورة قاتمة للحياة الاقتصادية فى تلك البلاد ؛ ولا سبيل لعلاج هذا الكساد فى السوق الداخلية ، إلا عن طريق التصدير بأسعار لا تقبل المزاحمة ، والظاهرة الغريبة التى شوهدت وما زالت تشاهد فى السوق الإنجليزية ، أن أسعار البيض الوارد فى جنوب أفريقيا أرخص سعراً فى لندن منه فى جوهانسبرج أو مدينة الكاب ، وقس على ذلك أسعار الفاكهة والزبد . والنتيجة الحتمية لهذا ، أن الفلاح لا يجد الجزاء الحق عن كده وعرقه ، وأن الحكومة ، خشية تسرب سكان الريف إلى المدن ، وما يتبع ذلك من هجران الأراضى الزراعية ، تدفع إعانات تصدير ، وتمنح قروضاً تبلغ فى المتوسط ٢٦ شلناً عن كل هكتار من الأراضى المنزرعة ؛ كما تمنح

المصارف ضعف هذا المبلغ ، مما يبهظ كواهل الفلاحين بالديون ولا يترتب عليه أى تيسير فى أحوالهم . فإذا كان السادة الأوربيون أصحاب الأرض على هذه الحالة ، فما ظنك بالعمال السود الذين يكدحون منذ أجيال ولا يدّخرون درهماً ؟

إن السادة الملاك ما زالوا يحتفظون ببقية من آثار العز القديم ، برغم الكساد الذى حاق بهم ، فالمالك يعيش مع أسرته فى قصر على الطراز الهولندى تحيط به الأشجار الباسقة وحدائق الزهور الغناء ؛ وعلى بعد مئات من الأمتار يعيش العبيد فى أكواخ مبنية بالطين ، عليها طلاء من الجير ، يفترشون الأرض ، ولا تجد فى دورهم سوى بعض القدور المصنوعة من الفخار ، والمواقد البدائية يشتعل فيها الحطب ، وعدد من الدجاج والوز والماعز ، وقلما يملك الواحد منهم بقرة تدر اللبن لغذاء الأطفال أو لصناعة الجبن . ويعمل النسوة فى قصور السادة ، أو يلازمن أزواجهن فى الحقل ، يكدحن إلى جانبهم ! . . . أما الأطفال ، فى الثامنة من أعمارهم فيتولون رعاية الغنم أو قيادة الثور الذى يجر المحراث ، ولا يغشى المدارس أكثر من ٦ ٪ من مجموع هؤلاء الأطفال !

وهؤلاء جميعاً يرون النور فى المزرعة ، ويكدون مدى الحياة بلا هوادة ولا أمل حتى يواروا التراب ، فهل يدركون مدى التعاسة التى تحيط بحياتهم ؟

كثير منهم شديدو التعلق بالأرض التى نشأوا فيها ، ويعتبرون السادة الملاك آباءهم الرحماء ؛ وهؤلاء السادة ، والحق يقال ، يعطفون عليهم كما

يعطف الإنسان على الحيوان الأليف الذى يعيش فى كنفه ، فيشاركونهم فى أفراحهم ويشاطرونهم أحزانهم ، ويدعونهم فى أعيادهم وحفلاتهم . . .

وبعض السود يعتنقون المسيحية ، ولهم كنيسة خاصة يرتادونها ، ويواظبون على إقامة الصلوات والاستماع إلى العظات التى يلقيها قسيس من بنى جلدتهم ؛ ولكن أغلبهم من الوثنيين الذين يعيشون على الفطرة ويتبعون دين آبائهم ، فيؤمنون بالسحرة والمشعوذين على المنهج الذى توارثوه عن أسلافهم . . .

ونسبة العمال الزنوج الذين يتقاضون أجوراً نقدية ، لا تتجاوز ١٥ ٪ من مجموعهم ، ويندر أن يصل الحد الأقصى لأجر العامل يومياً إلى الشلنات الخمسة التى يدفعها أصحاب الأراضى بمنطقة فرنش هاوك السالفة الذكر ؛ وفيما عدا ذلك يتقاضى العمال السود أجوراً عينية تختلف باختلاف الولايات ، وطبقاً للتسويات التى يتفق عليها بين مالك الأرض وعماله ، ومعظم عقود الاستخدام تقضى بأن يؤدى الزنجى وأسرته ما يطلب معهم من أعمال الحقل مدة تتراوح بين ثلاثة شهور وأربعة ، فى نظير المسكن الذى تعيش فيه الأسرة ، وقطعة من الأرض لفلاحتها ، وأخرى لرعى الماشية ، إلى كمية من الغذاء تصرف يومياً لأفراد الأسرة خلال فترة العمل !

ومما يؤسف له أن غالبية هذه الاتفاقات تعقد شفوياً ، ويتوقف تنفيذها على حسن نية المالك ، فإن حدث خرق فى الاتفاق أو أساء المالك تفسيره ، عجز الزنجى الأمى عن الفوز بحقوقه ودفع الظلم عن نفسه ، لأن المحاكم ، فى هذه الأحوال ، تأخذ بما يقرره الرجل الأبيض وتنزل أقواله مقام الآيات المنزلة !

ولا يغرى الزنوج بقبول هذه العروض سوى حصولهم على المراعى اللازمة للدواب والماشية التى يجلبونها معهم ، وتعتبر ثروتهم ومحل تفاخرهم . . .

وقد سألت أحد الخبراء الزراعيين عن قيمة الخدمات التى يؤديها الزنوج فى نظير حصولهم على المزايا السابقة ، فأجاب بأن هذه القيمة لا تتجاوز بحال من الأحوال خمسة وعشرين جنيهاً سنوياً لأفراد الأسرة المكونة من خمسة أشخاص ، ذلك هو العمل وهذا هو الجزاء فى ظل المدنية الحديثة ؛ فلماذا يعيبون على العصور الماضية أن السخرة كانت سائدة فيها ؟

على أن شهور العمل الثلاثة التى يتم الاتفاق عليها بين صاحب العمل والأجير شفوياً ، كثيراً ما تتضاعف إذا كان صاحب المزرعة محدود الموارد ولا يستطيع الاتفاق على عدد أكبر من العمال ؛ إذ تنتهى الشهور الثلاثة ولم يتم العمل ، فيلتزم العمال إتمامه مهما طال الزمن !

والنتيجة الحتمية لذلك الإرهاق والعسف ، أن لا يبقى للزنجى الأجير متسع من الوقت لفلاحة قطعة الأرض التى يمنحه إياها المالك ، والتى كان يرجو أن تدر على أسرته ما يقيم أودها . . .

وكثيراً ما يضيق صدر المالك بالهم ويفيض قلبه بالحسرة ومرارة الفقر المتزايد ، فلا يجد متنفساً لهمه وخيبة أمله إلا عن طريق القسوة والجبروت ويبدو ذلك فى أبشع صورة حينما يرتكب العبد هفوة ؛ فتلهب السياط ظهره . . .

وإذا ما لجأ إلى ساحة القضاء طالباً إنصافه من جور السيد وعدوانه ،

قوبلت شكواه بابتسامة السخرية ؛ لأن العبيد فى نظر القضاء أطفال كبار لا يميزون بين النافع والضار ، وعلى الآباء واجب تأديب أطفالهم ، الكبار والصغار وهدايتهم سواء السبيل ، بالزجر ، والضرب بالسياط !

ويرجع ذلك إلى أن القانون يفرق بين البيض والسود ، فالعقوبة على الجريمة الواحدة تختلف تماماً بالنسبة للسادة والعبيد ، فأولئك يؤخذون بالرفق ، وهؤلاء يؤخذون بالشدة والعنف ؛ وقد سمعت عدة روايات تثير الاشمئزاز فى النفوس ، بل يشيب لهولها الولدان ، عن التفرقة العنصرية فى القانون . . .

فمن ذلك أن نشوة الخمر زينت لأحد الأوربيين المسافرين أن يطلق النار من نافذة القطار على امرأة زنجية كانت تمر على مقربة من الخط الحديدى ؛ ولما سئل عن الدافع ، أجاب بأنه أطلق النار على سبيل الدعابة ولم يكن يقصد قتلها ، فحكم عليه بالسجن سنتين ! . . .

وشابان من البيض ، أخذا بتلابيب زنجى كان يركب دراجة فى الطريق العام ، وطرحاه أرضاً ؛ فلما احتج عليهما انهالا عليه ضرباً وركلا حتى مات ؛ فلما سألهما القاضى عن السبب ، أجابا بأنهما كانا يمزحان وأكبر الظن أن القاضى قد اقتنع بوجاهة هذا العذر ، فقد حكم على كل منهما بعشر جلدات ، ليس غير ! . . .

هذا ، فى الوقت الذى صدر فيه الحكم على ثلاثة من الزنوج اتهموا بسرقة بعض الماشية ، بالسجن ثمانية عشر شهراً !

وليت الأمر قد اقتصر على ذلك ، بل عذبوا تعذيباً شديداً اضطر

كلا منهم أن يقضى فى المستشفى أشهراً ليبرأ من جراحه ! . . .

وقد سألت قاضياً اشتهر بالنزاهة والإنصاف ، عما إذا كان قانون العقوبات ينطوى على تميز فى المعاملة بين البيض والسود ، فأجاب بأن هناك تفرقة فيما يتعلق بجريمة هتك العرض ؛ فإن كان الجانى أوربياً حكم عليه بالحبس البسيط مدة أقصاها ستة شهور ، وإن كان زنجياً حكم عليه بالأشغال الشاقة عدة سنوات ، أو بالأعدام فى حالات اغتصاب القاطرات . . . .

ثم توقف القاضى عن الحديث هنيهة وقال : لا تنس أن عدد الزنوج فى الاتحاد يزيد على ثمانية ملايين ، ويجب أن تكون الأحكام رادعة فى مثل هذه الحالات !

والآن فلنعد إلى الأجراء الذين يسامون العذاب فى مزارع الأوربيين ، ولا يكادون يجدون ما يمسك الرمق جزاء على عملهم الشاق ، ثم يسمعون على ألسنة بنى جنسهم حكايات عن وفرة الرزق والأجور المجزية فى المدن الصناعية فيقررون النزوح إليها . . .

لقد تكاثرت حالات الفرار من المزارع الأوربية ، وفسخ العقود الشفوية ، حتى ضج أصحابها ولجئوا إلى الحكومة طالبين النجدة ، فصدر قانون يحرم على الزنجى دخول المدينة ، إلا إذا كان يحمل إقراراً من صاحب المزرعة بأنه قد استغنى عن خدماته .

وهذا يفسر لنا تضخم عدد الزنوج الذين يقبعون فى الأحياء الخاصة بهم حول المدن الصناعية ، فالكثير من هؤلاء لا يحملون جواز المرور الذى

يسمح لهم بدخول المدينة ولو تسلل أحدهم إلى المدينة بلا جواز لقبض عليه وأودع السجن ، فيضطرهم ذلك إلى التكدس فى تلك الأجحار وراء حدود المدن ، ينشرون الأوبئة والفساد ، ويعلنون عن سوء نظام الحكم فى البلاد !

كل هذا يحدث فى البلد الذى وقف فيه سيسيل رودس يعلن على الملأ جهاراً منذ خمسين عاماً « أن المساواة فى الحقوق مكفولة لجميع المتمدينين بغض النظر عن ألوانهم وأجناسهم ! »

حقيقة أن رودس لم يبين قصده من تعريف الرجل المتمدين ، ولكن بماذا يتذرع المتعصبون ؟ وقد نص دستور الاتحاد الصادر عام ١٩١٠ على أن « حق التصويت مكفول للملونين الذين يعرفون القراءة والكتابة » ولكن هذا النص لم يطبق إلا على سكان ولاية الكاب ، ثم ألغى على يد الوزير الوطنى هرتزوج !

هكذا تسير الأمور فى اتحاد جنوب أفريقيا ، على نظام ليس له شبيه فى بلد آخر من بلاد الله الواسعة ، فهو نوع خبيث من الاستعمار لا يستهدف إلا غرضاً واحداً ، هو أن يتحول الملايين من أهل البلاد الأصليين إلى آلات صماء ، تعمل لخدمة البيض فى طاعة وصمت ، بلا طعام ولا شراب ولا لباس ولا مأوى ؛ فهم محرومون من حقوق كل حى ، بل محرومون حتى من نعمة الموت والخلاص ؛ لأن موتهم يحرم سادتهم مما يؤدون إليهم مكرهين من خدمات ؛ فحياتهم كارثة لا يباح لهم أن يعبروا

عما يحسون من آلامها ، وموتهم كارثة على مستعمريهم الذين لا يطيقون عيشاً بلا عبيد . . . وهم يزعمون مع ذلك أنهم جاءوا إلى هذه البلاد لتحرير العبيد !

ولكن ساعة الخلاص تقترب . . .

والويل للظالمين !

# فهرست

صفحة

الكتاب التالى

من مجموعة اخترنا لك

# تركيا والسياسة العربية

من خلفاء آل عثمان إلى خلفاء اتاتورك

يصدر فى

فى أول ديسمبر سنة ١٩٥٤

الطابع والناشر

دار المعارف بمصر